

كتب قيمة

الخطة البراقة

لذي النفس التواقة

تأليف

الدكتور صلاح الخالدي

الدار الشامية
بيروت

دار القلم
دمشق

الطّبعة الرّابعة

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

تُطلب جميع كتبنا من :

دَارُ القَلَمِ - دمَشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدّار الشّاميّة - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعودية عن طريق

دَارُ البَشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

كتب قيمة

(٨)

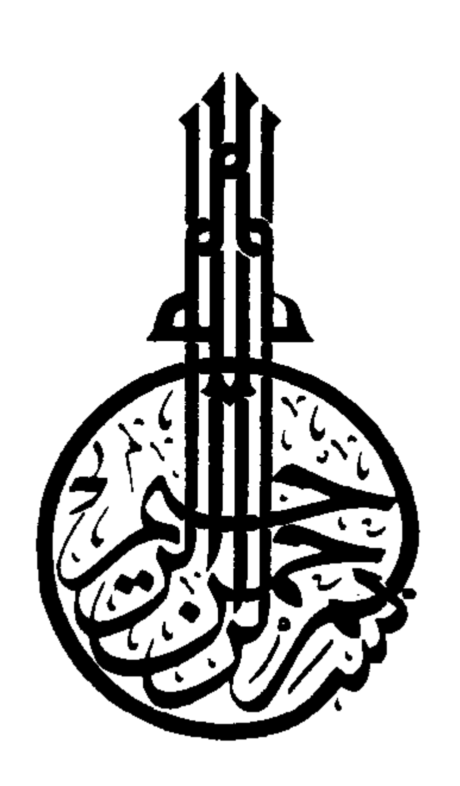


تأليف

الدكتور صلاح الخالدي

الدار الشامية
بيروت

دار القلم
دمشق


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه، ونتوبُ إليه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَنْ يَهدِ الله فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضللْ فلا هاديَ له. وأَشهدُ أن لا إله إلا الله، وحدَه لا شريكَ له، وأَشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

ربَّنا لا علمَ لنا إلا ما علمتَنا إنكَ أنت العليم الحكيم، ربَّنا آتِنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرةِ حسنة، وقنا عذاب النار. اللهمَّ اجعلِ القرآنَ الكريمَ ربيعَ قلوبنا، ونورَ صدورنا، وذهابَ همومنا، وجلاءَ أَحزانِنا، وارزقْنا تلاوتَه آناءَ الليلِ وأطرافَ النهار، وعلِّمْنا منه ما جهِلْنا، وذكِّرْنا منه ما نُسِّينا، واجعَلْه حجةً لنا يومَ القيامة.

أما بعد:

فقد فطرَ اللهُ الإنسانَ على أنْ يكونَ صاحبَ همةٍ وعزيمةٍ وإرادة، ومنحهُ القدرةَ على تحقيقِ عزيمتِه وإرادتِه، والارتقاءِ بهمته وقدراتِه، وغرسَ فيه التطلعَ إلى ما هو أَسمى، والنظرَ إلى

ما هو أعَلى، واستشرافَ ما هو أكمل.

وقد راعى الإسلامُ هذه الخاصيةَ الفريدةَ في الإنسان، فجاءتْ نصوصُه المتمثلةُ في آياتِ القرآن، وأحاديثِ الرسول ﷺ، داعيةً المسلمَ الصالحَ البصيرَ إلى تحقيقِ هذه الخاصيةِ فيه عملياً، وتحثُّه على الارتقاءِ والتَوْقِ والاستشراف.

وقدَّمَ رسولُ الله ﷺ من حياتِه وسيرتِه العملية قدوةً ونموذجاً وأُسوةً لهذا المسلم، ودَعاهُ إلى أَنْ يقتديَ به، في كلِّ مجالات حياتِه، ليحقق هذه الخاصيةَ في حياته عملياً، فكان الرسولُ ﷺ هو «المثالَ» في هذا المجال، الذي يَنظرُ إليه كلُّ سالكٍ على الطريق، راغبٍ في الارتقاء، توّاقٍ إلى السبقِ والتفرد والريادة.

ووفَّقَ اللهُ علماءَ رُوّاداً في تاريخِنا الإسلامي، ابتداءً من الصحابة الكرام رضوانُ الله عليهم، وحتى هذا العصر، فساروا صُعُداً في عالم الريادة، وكانوا سابقين متفردين، كواكبَ مضيئةً في سماء الأمة، يَنظرُ لها الآخرون بإعجابٍ وإكبار، ويرغبونَ في الاقتداء بهم، والسيرِ على طريقهم.

وتتوفرُ هذه الرغبةُ المأمولة، عند كثيرين من الشبابِ المسلم الصالح الملتزم في هذا الزمان، وتستشرفُ أَشواقُهم ما هو أسمى، وتتوقُ نفوسُهم إلى ما هو أَعلى، ويتأَثَّرون بما يجدونَه من حياةِ الرسول ﷺ وأَصحابه الكرام، وحياةِ العلماء الرواد السابقين، ويَرغبونَ في الاقتداءِ بهم، وفي الوصولِ إلى قريبٍ مما وصلوا إليه.

ورغمَ توفُّرِ الرغبةِ عند هؤلاء السالكين، إلاّ أنَّ كثيراً منهم لا يَعرفُ ماذا يفعل، ولا من أَين يبدأ، ولا كيفَ يسير.

كثيرٌ من هؤلاء الشباب الصالحين، أصحابِ العلمِ والرغبة والهمة، والتَوْقِ والاستشراف، لا يَعرفون كيفَ يُخططون ويُبرمجون، ولا كيفَ يقضون الأيامَ والشهورَ والسنوات، فيحتاجونَ إلى مَنْ يُرشدهم ويَنصحهم، ويأخذُ بأيديهم.

وباعتباري ممنْ يتعاملُ مع كثيرٍ من هؤلاء الشباب الصالحين إن شاء الله، حيثُ أَلتقي بهم في التدريسِ الجامعي الأكاديمي، أو في التدريسِ المنهجيِّ العلميِّ في المساجد وغيرها، أَتلقّى أسئلةً عديدةً من هؤلاء الشبابِ التوّاقين إلى الأفضل، يَسترشدون ويَستنصحون، ويطلبونَ خطةً أو برنامجاً أو منطلقاً. يقولون: ماذا نفعل؟ وماذا نقرأ؟ وكيف نقرأ؟ وكيف نستكملُ نقْصَنا؟ وما الصفاتُ التي يجبُ أن نتصفَ بها؟ وما الخطوطُ الأساسيةُ التي يجبُ أنْ نعمقَها في حياتنا؟ وكيفَ نبرمجُ ساعاتِ أَيامِنا؟ متى ننام؟ وكم ساعةً ننام؟ ما أَنسبُ الأوقات للقراءة والتحصيل العلمي؟ ماذا نفعلُ حتى نقي أنفسَنا الأمراض؟ وكيف نبقى متمتِّعين بالسعادةِ والبهجة والإشراق؟

كان هؤلاء الشبابُ يُحسنونَ الظنَّ بي، جزاهم الله خيراً، وأَرجو أنْ أكونَ عند حسنِ الظن، وأنْ أكونَ عند الله خيراً مما يظنّون، وأنْ يغفرَ لي ربي ما لا يعلمون.

وقد طلبَ منّي أعزاءٌ كِرام ـ ممن لا سبيلَ لي إلى ردِّ طلبهم ـ

أنْ أكتبَ لهم رسالة، أُسجلُ لهم فيها النصائح والإرشادات، وأضعُ لهم فيها البرامجَ والاقتراحات، لتحقيقِ ما يريدون، والارتقاءِ إلى ما يَتوقون ويستشرفون.

وكانوا دائماً يحثّونني ويُلحّون عليّ، وأنا أتعلَّلُ بكثرةِ الأعمال العلمية وتزاحُمِها، وضيقِ الوقت عن إنجازِ كثيرٍ منها، ولكنهم لم يتوقفوا عن الحَثِّ والطلب.

وقد وفَّقَ اللهُ لكتابةِ هذه الرسالة، فله الحمدُ والشكر، وحقَّقْتُ فيها القسمَ الأولَ من رغبةِ المسترشدين المستنصحين.

كانوا يريدونَ خطةً للتحصيلِ العلمي، يَعرفون بها كيفَ يَقضون أَوقاتَهم، وكيف يَقرؤون ويستوعبون.

كما كانوا يريدونَ خطةً ثقافية، يَعرفون فيها ماذا يقرؤون، وما الكتبُ التي يُنصحُ بها في مختلفِ ميادين العلم، في العقيدةِ والتفسيرِ والحديثِ والفقه واللغة والسيرة والتاريخ والفكر والدعوةَ، وماذا يُقدمون من الكتب، وما هو الكتابُ الأنفُع والأهم.

المطلوبُ إذن هو بيان: كيفَ يَقرؤون؟ وماذا يَقرؤون؟

وكم كنتُ أَتمنّى أنْ أُجيبَ على السؤالين في هذهِ الرسالة، ولكنْ عندما بدأتُ بالإجابةِ على السؤال الأول: كيف يقرؤون؟ وكيف يستغلّون أَوقاتَهم؟ وكيف يُبرمجون ساعاتِ نهارِهم؟ طالَ الكلامُ وامتدَّ ـ رغم حِرصي على الإيجازِ غيرِ المخل ـ وكبرَ حجمُ الرسالة.

ولو أَجبتُ على السؤال الثاني: ماذا يقرؤون؟ لتضاعفَ حجمُ الرسالة، والمتفقُ عليه مع الإخوةِ، ومع الناشرِ الكريم أن تكونَ بحجمٍ معين.

لذلك خصصْتُ هذه الرسالة لبيان: كيف يَقرؤون ويبرمجون أَوقاتهم، على أَملِ أنْ أَخصصَ رسالةً ثانيةً مستقلة، لبيان: ماذا يقرؤون، وما هو «ترتيب الأولويات» في التحصيلِ العلمي في المكتبة الإسلامية، وأَعِدُ بالإسراعِ في هذه الرسالة، وأَرجو اللهَ أنْ تكونَ في أَقربِ وقتٍ إن شاءَ الله.

وقد عرضتُ في هذه الرسالة «الخطّة البّراقة لذي النّفس التّوّاقة» للموضوعاتِ الأساسية التالية:

١ ـ سورةُ العصر، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

٢ ـ الدينُ النصيحة ومبدأُ التناصح.

٣ ـ نماذجُ من اهتمامِ العلماء بالوقت والعلم.

٤ ـ صحةُ المنطلق.

٥ ـ خطوطٌ رئيسية في الشخصية العلمية.

٧ ـ النفسُ التواقة ذاتُ الآمال البراقة.

٨ ـ التخطيطُ والبرمجةُ وترتيبُ الأولويات.

٩ ـ كيفيةُ تنفيذِ الخطة المبرمجة.

١٠ ـ مع صاحبِ العلم في ساعاتِ يومه.

١١ ـ مع صاحبِ العلم في صحتِه البدنية والنفسية.

وما أَنْ ينتهيِ صاحبُ العلم ذو النفس التواقةِ من هذه الرسالة، حتى يكون قد تعرَّفَ على معالمِ هذه الخطة البراقة، ووقفَ على ما فيها من نصائحَ وإرشادات، ووصايا واقتراحات، وعندما يأخذُ بها فإنه يربّي نفسه، ويتصفُ بما يريدُ الله منه، وتتكاملُ شخصيته تكاملاً إسلامياً متوازناً، حيث يكونُ صاحبَ شخصيةٍ إسلامية «ربانيةٍ سلفيةٍ حركية»، ويكون راغباً في العبادة، وفي العلم، وفي الدعوة.

إنَّ ما قدْمتُه لصاحبِ العلم ذي النفسِ التواقة من برنامج ومخطَّط، هو ضمنَ قدرتِه واستطاعته، وأَدعوهُ إلى أَنْ يأخذَ نفسه بالمجاهدة والعزيمة، وقد تتفاوتُ أَوقاتُ بعضهم، فيكون هذا البرنامجُ مَعْلَماً هادياً، ومثالاً يُحتذى، يأخذون بمعظمِ ما فيه، إنْ لم يَقْدروا على أَخذِ كلٍّ ما فيه.

أُقدمُ هذه الرسالةَ لأصحابِ العلمِ ذوي النفوسِ التواقة، واعِداً أَنْ أُصْدِرَ الرسالةَ الثانيةَ عن قريب إِن شاء الله، وأَتوجَّهُ إلى الله وحدَه بهذا العمل، راجياً منه القبولَ والثواب.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الدكتور صلاح الخالدي

الأحد ١٣/ ١٠/ ١٤١٦هـ

٣/ ٣/ ١٩٩٦م

سورة العصر والتواصي بالحق وبالصبر

أَوجبَ اللهُ على المسلمين التناصحَ فيما بينهم، بأنْ ينصحَ كلٌّ منهم أَخاه، ويُرشدَه إلى الخير، ويدلَّه على طرقِ تحصيلِه، ويعينَه عليه. وأَنْ يُذَكِّرَه بأُمورٍ وحقائق وقواعد، مَرَّتْ عليه سابقاً، لكنه قد يغفلُ عنها أو ينساها، في زحمةِ الحياة، وكثرةِ الشواغل، وأنْ يوصيَه بالحق، وبالصبرِ عليه، مهما كانت صعوبتُه، ومهما كانت مشقةُ طريقه، ومهما كانت تكاليفُه.

وقفة مع سورة العصر

ولقد جاءتْ بعضُ هذه الحقائق في سورة، هي من أَقصرِ سورِ القرآن، سورة العصر. قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

فاللهُ عز وجل يقسمُ في هذه السورة بالعصر، والعصرُ هو الزمانُ والدهر.

وأُقدمُ للإخوة القراءِ هذه اللطائفَ القرآنية من سورة العصر،

أبدأُ بها هذه الرسالة، لتكونَ حافزاً لهم لتدبرِ القرآن، وعصْرِ أعمارهم والاستفادةِ منها!

فقـه عصر العمر

أَساسُ معنى العصر هو «ضَغْطُ شَيْءٍ حتى يَتَحَلَّب»[1]. تقول: عصرتُ الثوب، وذلك عندما تضغطُ عليه ليخرجَ منه الماء. ولهذا سمّى اللهُ السُّحُبَ «مُعْصِرات»، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤].

وكأنَّ هذه السحبَ المحملةَ بالماء تُعصرُ عصراً، ويُضغطُ عليها، فيخرجُ الماءُ منها، وينزلُ ثَجّاجاً مَصْبوباً.

وإذا كان عصرُ الشيء هو الضغطُ عليه لإخراج ما فيه، فإنَّ زمانَ الناس وعمْرَهم عصر، لأنه يجبُ عليهم أنْ يَعصروه عصراً، ويضغطوا عليه ضغطاً، ليُحسنوا الاستفادة منه، واستخراجَ منافِعه وفوائده.

وعمرُ الفرد هو عصرُه الخاصُّ به، الذي يجبُ عليه أنْ يعصرَه، ويحسنَ استغلالَه ومعايشتَه.

فاعصِرْ عمْرَكَ أيها الأخُ المسلم عصراً، واضغطْ عليه ضغطاً، وجاهِدْ نفسَك، وابذلْ أَقصى جهدك، حتى لا تضيعَ هذا العمر

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٧٨٢.

المحدود، فإنْ لم تحسنْ عصْرَ عمرك والاستفادةَ منه فسوف تندمُ على ضياعه!

خسارة من لا يعصر عمره

لقد أَقسمَ اللهُ بالعصر والزمانِ على أنَّ الإنسانَ في خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

كلُّ الناس يخسرون، إلا المؤمنون الصالحون.

يَخسرون عصرهم وعمرهم وزمانهم، لأنهم يضيِّعون هذا العصر والعمر سدى، ولا يُحسنون الاستفادةَ منه، ولا يُحسنون عصْرَه والضغطَ عليه، والانتفاعَ بما فيه من ساعاتٍ وأيام، وشهورٍ وأعوام!

أربع صفات للرابحين

الذين لا يخسرون عصَرهم وعمرهم هم المؤمنون الصالحون، الذين يعملون الصالحات، ويتواصَوْن بالحق، ويتواصَوْن بالصبر.

ذَكرت السورةُ أَربعَ صفاتٍ لهؤلاء المؤمنين الفائزين الرابحين، الذين أَحسنوا «عصْرَ» أَعمارهم وأَوقاتهم، وهي صفاتٌ مقصودة، وترتيبها في السورة مقصودٌ أيضاً!

حكمة البدء بالإيمان

«الذين آمنوا»: بدأتْ بالإيمانِ لأنه الأساس، الأساسُ المحركُ الدافع، الباعثُ على عصرِ العمر، وبرمجةِ الوقت. وهو

الزادُ الذي يُزوِّدُ المؤمنَ بما يحتاجه لعَصْرِ العمر، والسيرِ في الطريق. كما أنه هو الشرطُ لقبولِ الأعمال الصالحة عند الله، فإذا لم تَصدرْ هذه الأعمالُ عن الإيمان ولم تنتجْ عنه، كانت مردودةً على صاحبها.

الصالحات ثمرة الإيمـان

«وعملوا الصالحات»: ذِكْرُ عملِ الصالحات بعد الإيمان لأنها ثمرةٌ له، وهذه الصالحات عامةٌ كثيرة، تشملَ جميعَ مجالات الحياة الصالحة، وجميعَ صورِ وألوانِ المنافع والطيبات، وتستوعبُ كلَّ سنواتِ عمر المؤمن، من حين تكليفه إلى حين وفاته.

وهذه «الصالحاتُ» هي «نَتاجُ» عصْرِ المؤمن لعمره، وضغْطِه على سنواتِه وأيامه وساعاته، فهو عندما يَعصرُ يومَه، ويُخرجُ منه هذه الصالحات، يفيدُ الآخرين، ويَربحُ عمره.

هذه «الصالحات» الناتجةُ عن عصر المؤمن لعصره وأيامه، أشبهُ ما تكون بالماءِ الثجاجِ المصبوب النافع، النازلِ من السحبِ المُعْصِرات، عندما تُعصر عصراً: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ [النبأ: ١٤ ـ ١٦].

كيفية التواصي بالحـق

«وتَواصوا بالحق»: هذه هي الصفةُ الثالثة للمؤمنين الفائزين، وهي أَنهم يتواصونَ بالحق.

والحقُّ هو الإسلام المتمثلُ في القرآن والسنة وفهمِ سلف الأمة، وما تفرعَ عن ذلك من حقولِ العلم وميادين الثقافة الإسلامية، كالعقيدة والتفسير والحديث والفقه والسيرة والتاريخ والتزكية واللغة والأدب، وغير ذلك.

الحقُّ هو الحقائقُ اليقينيةُ الثابتة الهادية، المستمدةُ من الإسلام وأصوله، والتي لا يجوزُ الخروجُ عليها أو مخالفتُها.

والتواصي بالحق لا يكونُ إلا بعدَ العلمِ بالحق، ومعرفةِ أنه حق، ولذلك هم يعلمون هذا الحق ويستوعبونَه، قبل أنْ يتواصَوْا به.

وبعد العلمِ بالحق يأْتي التواصي به، والتواصي عمليةٌ مشتركةٌ من طرفين، لأنَّ الألف في «تواصَوْا» ألفُ المفاعلة، التي تدلُّ على تفاعلِ الطرفين، واشتراكِهما في التواصي.

الأصْلُ أنْ يعرفَ كلُّ مؤمن الحقَّ ويعلَمَه، وأنْ يلتزمَ به ويعملَ الصالحات، وإذا لقيَ أخاه ـ العالَم بالحق العاملَ به ـ يتواصيان به، فيوصي كلٌّ أَخاه بذلك الحق.

والتواصي بينهما بالحق يشيرُ إلى مدارستهما الحق ومذاكرتِهما له وتذكُّرِهما لحقائقه، ولذلك علينا إحياءُ «مجالس العلم» في مساجدنا وبيوتنا ومؤسساتنا، نلتقي فيها، ونتذاكرُ العلم، ونتدارسُ الحق، وبعد ذلك نتواصى به، حتى لا ننساه.

حكمة التواصي بالصبر

«وتواصوا بالصبر»: الصفةُ الرابعة للمؤمنين المذكورة في السورة، هي تواصيهم بالصبر، وتفاعلُهم ومشاركتُهم في هذا التواصي.

وهذه خطوةٌ مبنية على ما قبلَها، فبعدَ العلم بالحق ومدارسته وتذكره، والتواصي به، يأتي التواصي بالصبرِ عليه. وهذا التواصي «تَعاهُدٌ» بين المؤمنين بالالتزامِ بالحق، والثبات عليه، والصبرِ على تكاليفه ومشقاته.

التواصي بالصبر والثباتُ على الحق، نظراً لأهمية ذلك، لأنَّ طريقَ الحقِّ شاق، والالتزامَ به مُكْلِف، والمؤمنُ يدفعُ الثمن غالياً باهظاً، سواء ثمنَ استمرارِ السيرِ المنضبط به، أَو ثمنَ مجاهدةِ النفس للثباتِ عليه، أو ثمنَ الارتقاءِ إلى آفاقه السامية، أو ثمنَ مواجهةِ أَعدائِه وخصومه.

وبما أنَّ كلَّ مؤمن يعلمُ ذلك، ويخشى على نفسه وأخيه أنْ يضعفَ أو ينتكسَ أو يغيرَ ويبدل، لذلك يتعاهدان على الصبرِ على الحق، حتى يلقى كلٌّ منهم ربَّه.

تناسق وتكامل الصفات الأربعة

وصفاتُ المؤمنين الفائزين متناسقة:

فالإيمان: أساسٌ وشرطٌ وزادٌ لعصر العمر وحسْنِ استغلاله.

والصالحات: هي نَتاجُ عضرِ العمر، وثَمرةُ الإيمانِ الباعثِ المحرك.

والتواصي بالحق: تعلُّمُه ومدارستُه ومذاكرتُه، والتناصحُ حولَه، وحسنُ تصويبٍ لمسيرة الحياة، وللأَعمالِ الصالحة، وحسْنُ ردِّها إِلى أصولها، المتمثلةِ في حقائقِ الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة.

والتواصي بالصبر: تعاهُدٌ بين المؤمنين ومشارطةٌ لاستمرارِ الارتقاء والتسامي في عالم الفضائل، واستمرارُ الثبات على الحق، واستمرارُ مواجهةِ الباطل وجنوده.

الذين يتصفونَ بهذه الصفات الأربعة هم الفائزون الرابحون، وغيرُهم هم الخاسرون، الذين يَخسرون عصرهم وعمرهم، فيخسرونَ كلَّ شيء.

وما هذه الرسالةُ إلا تطبيقٌ عمليٌّ لحقائقِ سورة العصر، ودعوةٌ إلى الاتصافِ بصفاتِ المؤمنين الفائزين فيها. فلْنعصِرْ عصرنا وأَعمارَنا عصراً، ولْنحسِنِ الاستفادةَ من ساعات أيامنا، ولْنكثِرِ من التواصي بالحق والتواصي بالصبر، ولْنجعَلْه شعاراً لنا في قطعِ مسيرةِ هذه الحياة، والله المستعان!!.

* * *

الدين النصيحة ومبدأ التنـاصح

بعدَ وَقفتِنا مع سورة العصر، وإشارتِنا إلى بعضِ أَبعادِها في عصْرِ العمرِ بالعمل، والتواصي بالحق والصبر، ننتقلُ إلى حديثِ رسول الله ﷺ، في تأصيلِ مبدأ «التناصح»، ليُضافَ إلى مبدأ العَصْرِ والتواصي.

حديثـان في النصيحة:

عن تميمِ الداري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «الدينُ النَّصيحة ـ ثلاثاً ـ قلنا: لمنْ يا رسولَ الله؟ قال: لله، ولكتابِه، ولرسولِه، ولأئمةِ المسلمين، وعامَّتِهم..»[1].

وعن جريرِ بنِ عبد الله البَجليِّ رضي الله عنه قال: «بايعْتُ رسولَ الله ﷺ على إقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، والنصحِ لكل مسلم»[2].

الحديثُ الأولُ الذي رواه تميمُ الداري رضي الله عنه هو أَحدُ

---

(١) أخرجه مسلم، برقم: ٥٥ في كتاب الإيمان.

(٢) أخرجه مسلم، برقم: ٥٦.

أَهمِّ الأَحاديث التي يدور عليها الإسلام، وقد وقفَ أمامه مطوَّلاً الذين شرَحوه، مثلُ الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم، والإمامُ ابن رجب في شرحه لهذا الحديث ضمنَ كتابه «جامع العلوم والحكم»، وهو الحديثُ السابع في أحاديثِ الكتاب.

خلاصة كلام ابن رجب في شرح الحديث

وأُوردُ خلاصةً موجزةً نافعةً من شرح ابن رجب للحديث، لها ارتباطٌ بهذه الرسالة، وتُحققُ هدفَها.

«... وقد أخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ الدينَ النصيحة، وهذا يدلُّ على أنَّ النصيحةَ تشملُ خصالَ الإسلام والإيمان والإحسان، التي ذُكرتْ في حديثِ جبريل، وسَمّى ذلك كلَّه ديناً...»[1]

«... قال الخَطّابيّ: النصيحةُ كلمةٌ يُعبَّرُ بها عن جملة، وهي: إِرادةُ الخير للمنصوحِ له. وأَصْلُ النّصحِ في اللغة الخَلوص، يقال: نصحتُ العَسل: إذا خلَّصْته من الشمع.

فمعنى النصيحة لله سبحانه: صحةُ الاعتقاد في وحدانيته، وإِخلاصُ النيةِ في عبادته. والنصيحةُ لكتابه: الإيمانُ به والعملُ بما فيه. والنصيحةُ لرسوله: التصديقُ بنبوته، وبذلُ الطاعة له،

(١) جامع العلوم والحكم ـ طبعة شعيب الأرناؤووط ـ ١ : ٢١٨.

فيما أَمرَ به ونَهى عنه. والنصيحةُ لعامةِ المسلمين: إِرشادُهم إلى مصالحهم»[1]

أقوال لعلماء سابقين في النصيحة

وقالَ محمدُ بن نصر المروزي في كتاب «تعظيمُ قدر الصلاة»: «قال بعضُ أهل العلم: جِماعُ تفسيرِ النصيحة هو: عنايةُ القلب للمنصوح له، كائناً مَنْ كان..»[2]

وقال: «.. ومِن أعظمِ أنواع النُّصْح أنْ ينصحَ لمن استشارَهُ في أمره. كما قال رسولُ الله ﷺ: «إذا استنصَحَ أحدُكم أخاه، فلينصحْ له..»

«وقال الحَسَن: إنكَ لن تبلغَ حقَّ نصيحتِك لأخيك حتى تأْمُرَه بما تعجزُ عنه.

وقال الحسن: قال بعضُ أصحابِ النبي ﷺ: والذي نفسي بيده إنْ شئْتُم لأُقسمنَّ لكم بالله: إِنَّ أحبَّ عبادَ الله إِلى الله: الذين يُحبِّبونَ اللهَ إِلى عباده، ويُحبِّبونَ عبادَ الله إلى الله، ويَسعونَ في الأرض بالنصيحة.

وقال أبو بكر المزني: ما فاقَ أَبو بكر رضي الله عنه أَصحابَ

---

(١) المرجع السابق: ١: ٢١٩ـ ٢٢٠.

(٢) المرجع السابق ١: ٢٢٠.

رسول الله ﷺ بصومٍ ولا صلاة، ولكن بشيءٍ كان في قلبه، وهو: حبُّ الله عز وجل، والنصيحةُ في خَلْقِه.

وقال الفضيلُ بنْ عياض رحمه الله: ما أَدركَ عندنا مَنْ أدركَ بكثرةِ الصلاة والصيام، وإنما أدركَ عندنا بسخاءِ الأنفس، وسلامةِ الصدور، والنصحِ للأمة.

وسُئلَ عبدُ الله بن المبارك رحمه الله: أيُّ الأعمالِ أفضل؟ قال: النصحُ لله.

وقالَ الفضيلُ بن عياض: المؤمنُ يسترُ ويَنصح، والفاجرُ يُهتكُ ويُعَيِّر.

وقال عبدُ العزيز بن أبي رَوَّاد رحمه الله: كان مَنْ كانَ قبلكم إذا رأى الرجلُ من أخيه شيئاً يأْمُرُه في رفق، فيؤْجَرُ في أمره ونهيه. وإنَّ أحدَ هؤلاء يَخرقُ بصاحبه، فيستغضبُ أخاه، ويهتكُ سِتْرَه.

وسُئل ابنُ عباس رضي الله عنهما عن أمْرِ السلطانِ بالمعروف ونهْيِه عن المنكر؟ فقال: إنْ كنتَ فاعلاً ولا بدّ، ففيما بينَكَ وبينَه!!.[1]

---

(١) انظر هذه الأقوال وغيرها في المرجع السابق ١: ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

معنى النصيحـة لله

أَمّـا الإمـامُ النـوويُّ رحمـه الله، فقـد ذكَـرَ خـلاصـةَ معنـى النصيحة، في مظاهرِها الخمسة، ونوردُ خلاصتَه، اكتفاءً بها في شرحِ هذا الحديث:

«أَمّا النصيحةُ لله: فمعناها منصرفٌ إلى: الإيمانِ به، ونفيِ الشريك عنه، وتركِ الإلحاد في صفاته، ووصْفِه بصفات الكمالِ والجلال كلِّها، وتنزيهِه سبحانه وتعالى عن جميع النقائص، والقيامِ بطاعته، واجتنابِ معصيته، والحبِّ فيه، والبغضِ فيه، وموالاةِ مَن أطاعه، ومعاداةِ مَن عصاه، وجهادِ مَن كفرَ به، والاعترافِ بنعمته، وشكرِه عليها، والإخلاصِ في جميع الأمور، والدعوةِ إلى جميع الأوصاف المذكورة، والحثِّ عليها، والتلطفِ في جميع الناس ـ أو مَنْ أمكنَ منهم ـ عليها.

وإضافةُ النصيحةِ لله: حقيقتُها راجعةٌ إلى العبدِ في نُصحه لنفسه، فاللهُ تعالى غنيٌّ عن نصحِ الناصح.

معنى النصيحة لكتـاب الله

وأَمّا النصيحةُ لكتابِ الله: فالإيمانُ بأنه كلامُ الله تعالى وتنزيلُه، لا يشبهه شيءُ من كلام الخلق، ولا يَقدرُ على مثله أحدٌ من الخلق، ثم تعظيمُه، وتلاوتُه حقَّ تلاوته، وتحسينُها، والخشوعُ عندها، وإقامةُ حروفه في التلاوة، والذبُّ عنه لتأويلِ المحرفين، وتَعرُّضِ الطاعنين، والتصديقُ بما فيه، والوقوفُ مع

أحكامه. وتفهُّمُ علومِه وأمثالِه، والاعتبارُ بمواعظه، والتفكرُ في عجائبه، والعملُ بمحكمه، والتسليمُ لمتشابهه، والبحثُ عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه، ونشْرُ علومه، والدعوةُ إليه.

معنى النصيحة لرسول الله

وأَمّا النصيحةُ لرسوله ﷺ: فتصديقُه على الرسالة، والإيمانُ بجميع ما جاءَ به، وطاعتُه في أمره ونهيه، ونصرتُه حياً وميتاً، ومعاداةُ مَن عاداه، وموالاةُ مَن والاه، وتعظيمُ حقه، وتوقيرُه، وإحياءُ طريقته وسنته، وبثُّ دعوته، ونشرُ شريعته ونفيُ التهمَة عنها، واستثارةُ علومها، والتفقهُ في معانيها، والدعوةُ إليها، والتلطفُ في تعلِمها وتعليمِها، وإعظامُها وإجلالُها، والتأدبُ عند قراءتها، والإمساكُ عن الكلام فيها بغيرِ علم، وإجلالُ أهلِها لانتسابهم إليها، والتخلقُ بأخلاقه، والتأدبُ بآدابه، ومحبةُ أهل بيته وأصحابه، ومجانبةُ مَن ابتدعَ في سنته، أَو تعرَّضَ لأحدٍ من أَصحابه.

معنى النصيحة لأئمة المسلمين

وأَمّا النصيحةُ لأئمةِ المسلمين: فمعاونتُهم على الحق، وطاعتُهم فيه، وأَمْرُهم به، وتنبيهُهم وتذكيرُهم برفق ولطف، وإعلامُهم بما غفلوا عنه، ولم يبلُغْهم من حقوق المسلمين، وتركُ الخروج عليهم، وتألُّفُ قلوب الناس لطاعتهم، والصلاةُ خلفهم، والجهادُ معهم، وأداءُ الصدقات إليهم، وتركُ الخروجِ

عليهم بالسيف، إذا ظهرَ منهم حيف، أو سوءُ عشرة، وأَنْ لا يُغَرّوا بالثناءِ الكاذب عليهم، وأنْ يُدعى لهم بالصلاح.

وهذا كلُّه على أنَّ المرادَ بأئمةِ المسلمين الخلفاء، وغيرُهم ممن يقومُ بأمور المسلمين، من أصحابِ الولايات، وهذا هو المشهور.

وقد يُتأَوَّلُ ذلك على الأئمةِ الذين هم علماءُ الدين، فمن نصيحتِهم قبولُ ما رووه، وتقليدُهم في الأحكام، وإِحسانُ الظنِّ بهم.

معنى النصيحة لعامة المسلمين

وأَمّا نصيحةُ عامةِ المسلمين ـ وهم مَنْ عَدا ولاةِ الأمر ـ: فإرشادُهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم، وكفُّ الأذى عنهم، وتعليمُهم ما يجهلونَه من دينهم، وإِعانتُهم عليه بالقول والفعل، وسترُ عوراتهم، وسدُّ خلاّتهم، ودفعُ المضارِّ عنهم، وجلْبُ المنافعِ لهم، وأَمْرُهم بالمعروف، ونهيُهم عن المنكر برفقٍ وإخلاص، والشفقةُ عليهم، وتوقيرُ كبيرهم، ورحمةُ صغيرهم، وتخوُلهم بالموعظة الحسنة، وترْكُ غشِّهم وحسدِهم، وأنْ يحبَّ لهم ما يحبُّ لنفسه من الخير، ويكرهَ لهم ما يكرهُ لنفسه من المكروه، والذبُّ عن أَموالِهم وأعراضهم وغيرِ ذلك من أحوالهم، بالقول والفعل، وحثُّهم عل التخلقِ بجميعِ ما ذكرناه من أنواع النصيحة، وتنشيطُ هممِهم إلى الطاعات، وقد كان في

السلفِ رضي الله عنهم مَنْ تبلغُ به النصيحةُ إلى الإضرار بدنياه.»[1]

قصة جرير البجلي في نصح بـائع الفرس:

ولما شرحَ الإمامُ النوويُّ الحديثَ الثاني الذي سبقَ أنْ أوردْناه، والذي رواهُ الصحابيُّ الجليل جريرُ البجلي رضي الله عنه، أوردَ النوويُّ قصةً عجيبةً عن جرير رضي الله عنه، تدلُّ على حسنِ فقهِه للحديث الذي يَرويه، وحسنِ التزامه به، نوردُها للإخوة القراء، ليحاوِلوا الاقتداءَ بهذا الصحابيِّ الناصحِ المشفقِ الصادق، رضي الله عنه.

وأُوردُ هنا كلامَ النوويِّ رحمه الله. قال: «ومما يتعلقُ بحديثِ جرير منقبةٌ ومكرمةٌ له رضي الله عنه، رواها الحافظُ أبو القاسم الطبراني بإسناده.

اختصارُها: أَنَّ جريراً رضيَ اللهُ عنه أمَرَ مولاه أنْ يشتريَ له فَرَساً، فاشترى له فرساً بثلاثمائة درهم، وجاءَ به، وبصاحبه لينقُدَه الثمن.

فقالَ جرير لصاحبِ الفرس: فرسُكَ خيرٌ من ثلاثمائة درهم! أَتبيعُه بأربعمائة درهم؟

---

(١) شرح النووي المسمى «المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج» ١ :٣٨ـ٣٩.

فقال الرجل: ذلكَ إليكَ يا أبا عبد الله.

فقال جرير: فرسُكَ خيرٌ من ذلك، أَتبيعُه بخمسمائة درهم؟.

ولم يزلْ جرير يزيدُه مائة مائة، وصاحبُه يرضى، وجرير يقول: فرسُكَ خير، إلى أَنْ بلغَ ثمانمائة درهم. فاشتراهُ بها.

فقيلَ لجرير في ذلك، فقال: إني بايعْتُ رسولَ الله ﷺ على النصحِ لكل مسلم!!»[1]

تعـليق موجز على قصة جرير

تأمَّلوا مَعنا هذا الموقفَ العمليَّ الرائعَ لجرير رضي الله عنه، يُرسلُ خادمَه ليشتريَ له فرساً، ويتفقُ الخادمُ مع البائع على الثمن، ويرضى البائعُ أنْ يبيعَه بثلاثمائة درهم، ويَذهبانِ إلى جرير رضي الله عنه ليدفعَ الثمن فقط.

ولكنَّ جريراً عندما نظرَ للفرس عرفَ أنه يساوي أكثرَ من هذا المبلغ، وكان بإمكانِه أنْ يوافق على ما اتفقَ عليه وكيلُه مع البائع، وأنْ يبررَ الأمْرَ لنفسه، فليس هو الذي عقدَ الصفقة، وإذا كان هناك حرجٌ أو إثمٌ فعلى وكيله!

ولكن جريراً الذي بايعَ الرسولَ عليه الصلاة والسلام على النصح لكل مسلم يرفضُ ذلك التبرير، ولو أَجازَ ما فعله وكيله

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١ : ٤٠.

لخدعَ البائع وغَشَّه، وحياتُه مبنيةٌ على النصح والتناصح!

قالَ للبائع ناصحاً: فرسُك تساوي أكثر! أتبيعُه بأربعمائة؟ أَتبيُعه بخمسمائة؟ أتبيعُه بستمائة؟ أَتبيعُه بسبعمائة؟ أَتبيعُه بثمانمائة؟.

كلُّ هذا والبائعُ مستغربٌ مما يرى ويسمع، وموافقٌ على أيِّ مبلغٍ يضعُه جريرُ ثمناً لفرسه.

ولما أيقنَ جريرٌ رضي الله عنه أنَّ فرسَ الرجل يساوي آخرَ مبلغ ذكَرَه، اشتراه منه، ودفعَ له ثمانمائة درهم، بدل ثلاثمائة. أي أنَّ جريراً رضي الله عنه دفعَ حوالي ضعفي الثمنِ الأول، وهو خمسمائةُ درهم!!.

ولامَ بعضُ الحاضرين جريراً على ما فعل، وعلى المبلغ الذي ألزمَ به نفسه، وكان في غِنى عن هذه الخسارةِ في نظرهم!

لكنَّه أخبرهم أنه فعلَ ذلك، تطبيقاً منه لمبدأ النصيحةِ لكل مسلم، وتنفيذاً لما بايعَ عليه رسولَ الله ﷺ، ويجبُ أنْ يكونَ صادقاً مع الله، ومع الرسولِ عليه الصلاة والسلام، ومع نفسه، ومع إخوانِه المسلمين... ولذلك نصحَ أخاه نصيحةً كلَّفَتْه خمسَمائة درهم فرقَ سِعْر!!.

تعميق التناصح فيما بيننا

ويجبُ علينا أن نعتمدَ مبدأ «التناصُح» فيما بيننا، تطبيقاً لقولِ رسول الله ﷺ السابق، واقتداءً بالناصحين السابقين، وفي

طليعتِهم جريرُ البجلي رضي الله عنه.

المسلمونَ بعضُهم لبعض نَصَحَة، والمنافقون بعضهم لبعض غَشَشَة، وحقُّ المسلم على المسلم أنْ ينصحَه عندما يستنصحُه، والمؤمنُ مرآةُ أخيه.

وانطلاقاً من هذا كلِّه، نقدمُ هذه النصائحَ والإرشادات، للإخوانِ والأخوات، ونضعُ بين أيديهم هذا البرنامجَ النموذجي، ليُحسنوا الاستفادةَ من أوقاتِهم وأعمارهم، ويُحسنوا طلبَ العلم وتحصيلَه، ويتعرَّفوا على أهمِّ ميادين العلم وجوانبه، وعلى الكتبِ الأمهاتِ في كلِّ لونٍ من ألوانه، ويتصفوا بالصفات الأساسية لطلبة العلم وحَمَلته، ويَجمعوا بين تزكيةِ النفوس وتحسينِ الأخلاق، وتكامُلِ الشخصية، وسلفيةِ الانتماء، وحركيةِ الدعوة، ويَقتدوا في كلِّ ذلك برسول الله ﷺ وصحابته الكرام، وبالعلماءِ الربانيين العاملين من هذه الأمة، في القديم والحديث!

* * *

نمـاذج من اهتمام العلماء بالوقت والعلم

بين يديَّ رسالةٌ تربويةٌ لطيفة، هي «قيمةُ الزمن عند العلماء» للأستاذِ العالمِ المربي الشيخِ عبد الفتاح أبو غدة حفظه الله.

وقد جمعَ رسالتَه من بطونِ كتب التراث المختلفة، وسجلَ فيها نماذجَ رائعةً لعلماءَ سابقين في مختلف ميادين العلم، يبدو فيها شعورُهم الحيُّ بالزمن، واهتمامُهم البالغُ بالوقت، وحرصُهم الشديدُ على العلمِ والتحصيل.

وقدمَ الشيخُ أبو غدة رسالتَه لطلبةِ العلم، والراغبين في تحصيله، والحريصين على أَعمارهم وأَوقاتهم، لتكون النماذجُ التي أوردها «قدواتٍ» لهم، يقتدونَ بأصحابها، ويسيرون على دربهم العلمي الرشيد.

وأَنتقي من الصورِ والنماذج، والوصايا والعظات، التي في الرسالة، هذه الأمثلة:

ابن عبد القيس: أمسك الشمس

١ ـ جاءَ رجلٌ إِلى عامرِ بنِ عامرِ بنِ عبد القيس ـ وهو أحدُ

العابدين التابعين الزهاد ـ وقال له: كلِّمْني. فقال له عامر: أَمسكِ الشمس![1]

ومعنى كلام ابن عبد القيس: أنَّ الشمسَ دائمةُ الجَرْي، لا تتوقف، وهذا يعني أنَّ العمرَ لا يتوقف، فكيف تريدُني أنْ أقفَ وأكلمك؟!

أبو يوسف والمدارسة وهو يحتضر

٢ ـ ولما مرضَ الإمام أبو يوسف ـ يعقوب بن إبراهيم صاحبُ أبي حنيفة رضي الله عنهما ـ جاءه أحدُ تلاميذِهِ يزوره.

قال تلميذُه القاضي إبراهيمُ بن الجراح: مرضَ أبو يوسف، فأتيتُه أَعودُه، فوجدتُه مغميً عليه. فلما أَفاقَ قال لي: يا إبراهيم: ما تقولُ في مسألة؟ قلت: وأنتَ في هذه الحالة؟ قال: لا بأسَ بذلك، ندرس، لعلَّه ينجو به ناجٍ!

ثم قال لي: يا إبراهيم: أَيها أَفضلُ في رمي الجمار، أنْ يرميها ماشياً أَو راكباً؟ قلت: يَرميها راكباً. قال: أَخطأْتَ. قلت: يَرميها ماشياً. قال: أخطأْتَ!

قلت: قُلْ فيها، يرضى اللهُ عنك.

قال: أما ما كان يوقَفُ عندَه للدعاء، فالأفضلُ أنْ يرميَه

---

(١) قيمة الزمن عند العلماء لأبي غدة: ١٤.

ماشياً. وأما ما كان لا يوقَفُ عنده للدعاء فالأفضلُ أنْ يرميَه راكباً.

ثم قمتُ من عنده. فما بلغْتُ بابَ داره حتى سمعتُ الصراخَ عليه. فإذا هو قد مات. رحمةُ الله عليه[1].

كتـاب الوزير ابن خاقان في كمه

٣ ـ كان الفتْحُ بنُ خاقان أَديباً شاعراً، حريصاً على طلب العلم، وقد اتخذه المتوكلُ وزيراً عنده. ومع ذلك كان شديدَ الحرص على وقتِه، وعلى طلب العلم.

فكان يكونُ بين يدي المتوكل ـ الخليفة العباسي ـ وكان يُخفي الكتابَ في كُمِّه أو خُفِّه، فإذا قامَ مِن أمامِ المتوكلِ للبول أو للصلاة، أخرجَ الكتاب فنظرَ فيه وهو يمشي، حتى يبلغَ الموضعَ الذي يريده، ثم يصنعُ مثلَ ذلك في رجوعه، إلى أنْ يأخذَ مجلسه. فإذا أرادَ المتوكلُ القيامَ لحاجة، أخرجَ الفْتحُ الكتابَ من كُمِّه أو خُفِّه، وقرأه في مجلس المتوكل، إلى حين عودتِه[2].

برنـامج الطبري اليومي

٤ ـ كان الإمامُ محمد بن جرير الطبري رحمه الله حريصاً على وقتِه وعلى تقييدِ العلم.

---

(١) المرجع السابق: ١٥.
(٢) المرجع السابق: ١٦.

قال السِّمْسِمِيّ: مكثَ ابنُ جرير أربعين سنة، يكتبُ كلَّ يوم منها أَربعين ورقة.[1]

وقال القاضي أَبو بكر بن كامل ـ تلميذُ الطبري ـ عن نومِ الطبري ويقظته وحسْنِ تقسيمِه لوقته:

كان الطبريُّ في الصباح إذا أَكل نامَ في الخيش ـ وهي ثيابٌ في نسْجِها رقة، وخيوطُها غلاظ، تُتَّخَذُ من مشاقة الكتان، تُلبس في الحرِّ عند النوم، لبرودتِها على الجسم ـ ويَلبسُ قميصاً قصيرَ الأكمام، مصبوغاً بالصندل وماءِ الورد.

ثم يقومُ فيصلّي الظهر في بيته، ويكتب في تصنيفه إلى العصر، ثم يخرجُ فيصلّي العصر، ويجلسُ للناس، يُقْرِىءُ ويُقْرَأُ عليه، إلى المغرب ثم يجلسُ للفقه والدرسِ بين يديه إلى العشاء الآخرة. ثم يدخلُ منزله.

وقد قسَّم ليلَه ونهارَه في مصلحة نفسِه، ودينه، والخَلْق[2].

وما ضيَّعَ الإمامُ الطبري دقيقةً من حياتِه بدون فائدةٍ أَو إفادة أو استفادة.

قال المُعافى بنُ زكريا: كنتُ بحضرةِ أَبي جعفر بن الطبري

(١) المرجع السابق: ١٨.
(٢) المرجع السابق: ١٩.

رحمه الله تعالى قبلَ موته، وتوفيَ بعدَ ساعةٍ أو أقلَّ منها، فَذُكِرَ أمامَه دعاءٌ عن جعفر الصادق، فاستدعى ابنُ جرير محبرةً وصحيفة فكتبه!

فقيلَ له: أتكتبُه وأنتَ في هذه الحال؟ فقال: ينبغي للإنسانِ أنْ لا يَدَعَ طلبَ العلمِ حتى الممات![1]

البيروني يحفظ العلم قبيـل موته

٥ ـ وحدَّثَ الفقيهُ أبو الحسن عليُّ بن عيسى عن اهتمام أبي الرّيحان البيْروني بالعلم، فقال: دخلتُ على أَبي الريحان وهو يجوْدُ بنَفْسه، وقد حشرجَ نَفَسُه، وضاقَ به صدره ـ وقد بلغَ من العمر ثمانيةً وسبعين عاماً ـ.

فقالَ لي في تلك الحال: كيفَ قلتَ لي يوماً في حساب الجَدّات الفاسدة في الميراث؟

فقلتُ له إِشفاقاً عليه: أفي هذه الحالة؟

فقال لي: يا هذا: أُودِّعُ الدنيا وأَنا عالمٌ بهذه المسألة، خيرٌ مِن أَنْ أودِّعَها وأنا جاهلٌ بها!!

فأعدتُ المسألةَ عليه، وحَفِظ، وعلَّمني، وخرجْتُ... ولما

(١) المرجع السابق: ١٩ ـ ٢٠.

كنتُ في الطريق سمعتُ الصراخَ عليه، حيث مات، رحمه الله[1].

سُلَيم الرازي وقراءته القرآن

٦ ـ وكان الإمامُ سُلَيْمُ الرازي مهتماً بوقتِه. قال عنه التاجُ السبكي: كان رحمه اللهُ من الورعِ على جانبٍ قوي، يحاسبُ نفسه على الأوقات، لا يَدَعُ وقتاً يمضي بغيرِ فائدة، إمّا يدرس، أو يَنسخ، أو يَقرأ.

قال سُلَيم الرازي وقد نزلَ إلى داره يوماً ورجع: ، لقد قرأْتُ جزءاً في طريقي.

وحدَّثَ المؤمِّلُ بنُ الحسن أنه رأى سُلَيْمَ الرازي وقد حفيَ عليه القلم، فإلى أنْ أَصلحَه كان يحركُ شفتيه، فعلمَ أنه يقرأُ القرآن أَثناءَ إصلاحِ القلم، لئلا يمضي عليه زمانٌ وهو فارغ[2].

متى ينام الجويني ويأكل

٧ ـ قال الإمامُ عبدُ الملك الجويني ـ إمامُ الحرمين ـ: أنا لا أَنامُ ولا آكلُ عادة، وإنما أنامُ إذا غلبني النوم، ليلاً كان أَو نهاراً، وآكلُ إذا اشتهيتُ الطعام، أيَّ وقتٍ كان.

---

(١) المرجع السابق: ٢١ ـ ٢٢.

(٢) المرجع السابق: ٢٢ ـ ٢٣.

فكانتْ لذَّتُه ونزهتُه في مذاكرةِ العلم، وطلب الفائدة[1].

أبو الوفاء بن عقيل في طعـامه وفكره

٨ ـ كان الإمام أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي الحنبلي يقول: إِني لا يحلُّ لي أنْ أُضيعَ ساعةً من عمري، حتى إذا تعطَّلَ لساني عن مذاكرةٍ أو مناظرة، وبَصري عن مطالعة، أَعملتُ فكري في حالِ راحتي، وأنا منطرح، فلا أنَهضُ إلاّ وقد خطرَ لي ما أسطره.

وإِني لأجدُ من حرصي على العلم، وأنا في عشْرِ الثمانين، أشدَّ مما كنتُ أجدهُ وأنا ابنُ عشرين سنة.

وأنا أُقَصِّرُ بغايةِ جهدي أوقاتَ أكلي، حتى أَختارَ سَفَّ الكعك وتَحسّيه بالماء، على الخبز، لأَجلِ ما بينهما مِن تفاوتِ المضغ، توفُّراً على مطالعة، أو تسطيرِ فائدة، وإِنَّ أجلَّ تحصيلٍ عند العقلاء ـ بإجماعِ العلماء ـ هو الوقت، فهو غنيمةٌ تُنتهزُ فيها الفرص، فالتكاليفُ كثيرة.

ولما احتضرَ الإمامُ ابنُ عقيلٍ وأَدركتْه الوفاة، بَكت النساءُ حزناً عى فراقِه، فقال لهنّ: قد وَقَّعْتُ عن الله خمسينَ سنة ـ لأنه كان يوقِّعُ الفتاوى التي يبينُ فيها أَحكامَ الله للسائلين ـ فدَعوني أَهنأُ بلقاءِ الله!

---

(١) المرجع السابق: ٢٣.

ولما تُوفي هذا الإمام، لم يُخَلِّفْ من الدنيا سوى كتبه وثياب بدنه، وكانت بمقدارِ كفنه وأَداءِ دينه[1].

نقول لابن الجوزي في صيد الخاطر

٩ ـ أَوردَ الإمامُ أبو الفرج بن الجوزي في كتابه اللطيف «صيد الخاطر» أقوالاً لبعضِ السابقين حول الاهتمام بالأوقات. من هذه الأقوال:

ـ قال الفضيلُ بنُ عياض رحمه الله: أَعرفُ مَنْ يَعُدُّ كلامَه من الجمعة إلى الجمعة.

ـ ودخلَ قومٌ على رجلٍ عابدٍ من السلف، فقالوا: لعلّنا شغلْناك؟ فقال: أَصدقكم القول: نعمْ! كنتُ أقرأ، فتركتُ القراءةَ لأجلكم!!

ـ وجاء عابدٌ إلى السَّرِيِّ السَّقَطي، فرأى عنده جماعةً جالسين، فقال له: صِرتَ مُناخَ البَطّالين!! ثم مضى ولم يجلس.

ـ وقعدَ قومٌ عند معروف الكرخي، فأطالوا، فقال لهم: إِنَّ مَلَكَ الشمس لا يَفْتُرُ عن سوقِها، فمتى تُريدونَ القيام؟!

ـ وكان داودُ الطائي يَسْتَفُّ الفتيت، ويقول: بين سَفِّ الفتيتِ وأكْلِ الخبزِ قراءةُ خمسين آية.

---

(١) المرجع السابق: ٢٥ ـ ٢٦.

ـ وكان عثمانُ الباقلاوي دائمَ الذكر لله، وقال يوماً: إني وقتَ الإفطارِ أُحسُّ بروحيَ كأنها تخرجُ! لأني أَشتغلُ بالأكل عن الذكر.

ـ وأَوصى أحدُ السلف أَصحابَه فقال: إِذا خرجْتُم من عندي فتفرَّقوا، لعلَّ أَحدكم يقرأُ القرآنَ في طريقه، ومتى اجتمعتم تحدثتم!![1]

براية أقـلام ابن الجوزي

١٠ ـ وكان الإمامُ ابنُ الجوزي يجمع براية الأقلام التي كان يكتبُ بها، ويحتفظُ بها في مكان خاص. ولما حضرَتْه الوفاةُ أَوصى أَنْ يُسَخَّنَ الماء الذي سيغَسَّلُ به ببرايةِ تلك الأقلام!

ولما مات نفذوا وصيتَه، فكفَتْ برايةُ أقلامه لتسخينِ مائه، وزادَ منها شيءٌ بعد ذلك!![2]

البرنـامج النموذجي للحافظ المقدسي

١١ ـ روى الضياءُ المقدسيُّ عن برنامج شيخِه الحافظ عبد الغني المقدسي، فقال: كان لا يُضيعُ شيئاً من زمانه: فكانَ يصلي الفجر، ثم يُلقِّن ويعلِّم الناس القرآن، وربما لقَّنهم الحديث، ثم

---

(١) المرجع السابق: ٢٩.
(٢) المرجع السابق: ٣٢.

يقوم، فيتوضأُ ويصلي ثلاثمائة ركعة، بالفاتحةِ والمعوذتين إلى قبيل الظهر، ثم ينامُ نومة، فيصلي الظهر، ويشتغلُ بالتسميع أو النسخ إلى المغرب، فيفطرُ إنْ كان صائماً، ويصلي العشاء، ثم ينامُ إلى نصفِ الليل أَو بعده، ثم يتوضَّأُ ويصلي، ويتوضأُ ويصلي، إلى قريبِ الفجر، وربَّما توضأ سبعَ مرات أو أكثر، ويقول: تَطيبُ لي الصلاة ما دامتْ أعضائي مبتلَّة، ثم ينامُ نومةً يسيرةً قبل الفجر[1].

تأسف الرزاي على وقت الأكل

١٢ ـ كان الإمامُ المفسِّر فخرُ الدين الرازي يقول: واللهِ إنّي لأتأسف في الفواتِ عن الاشتغالِ بالعلم في وقت الأكل، فإنَّ الوقتَ والزمانَ عزيز![2]

ابن مالك يحفظ الشعر ساعة موته

١٣ ـ مما وردَ في ترجمة الإمام النحوي ابن مالك صاحبِ الألفية في النحو «ألفيةِ ابن مالك»: كَانَ رحمهُ الله كثيرَ المطالعة، سريعَ المراجعة، لا يكتبُ شيئاً من محفوظِه حتى يراجعَه في محلِّه ـ وهذه حالةُ المشايخِ الثقات، والعلماءِ الأَثْبات ـ وكان ابنُ

---

(١) المرجع السابق: ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) المرجع السابق: ٣٤.

مالك لا يُرى إلاّ وهو يُصلي، أَو يتلو، أَو يصنّف، أو يَقرأ. !

ومن أَغربِ الأمثلةِ على اعتنائِه بالعلم أنَّ ابنَه جاءَه في اليوم الذي ماتَ فيه، ومعه ثمانيةُ أبيات من الشعر، فطلبَ من ابنِه أنْ يلقنَه الأبياتَ الثمانية رغَم مرضه، فحفظَها قبلَ وفاته، رحمه الله!

ويصدقُ فيه قول القائل: بقْدرِ ما تَتَعَنّى، تَنال ما تَتَمَنّى..[1]

ابن النفيس يدون العلم في الحمام

١٤ ـ الإمامُ علاءُ الدين ابن النفيس هو الطبيب المشهور، الذي اكتشفَ الدورةَ الدموية في القرن السابع.

وكان إذا أرادَ التأليفَ والتصنيف، توضَعُ له الأقلامُ مبريّة، ويُديرُ وجْهه إلى الحائط، ويأخذُ في التصنيفِ إملاءً مِن خاطرِه، ويكتبُ مثلَ السيلِ إذا انحدر، فإذا كَلَّ القلمُ وحَفِي، رمى به وتناولَ غيره، لئلا يضيعَ عليه الزمانُ في بَريِ القلم. وكان يكتبُ ـ إذا صنف ـ من صدره، من غيرِ مراجعةٍ للكتب.

ودخلَ مرةً الحمام ليغتسل، وبينما كان يغتسلُ خرجَ إلى مكان نزع وارتداءِ الملابس، واستدعى بدَواةٍ وقلمٍ وورق، وكتبَ مقالةً في النبض إلى أَن أنهاها! ثم عادَ وكَمّلَ اغتساله!!![2]

---

(١) المرجع السابق: ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) المرجع السابق: ٣٦ ـ ٣٨.

ابن عساكر الزاهد في المناصب

١٥ ـ أَما الإمامُ المؤرخُ أبو القاسم ابن عساكر صاحبُ «تاريخ دمشق» فقد حدَّثَ ابنُه القاسم عنه قائلاً: كان أَبي رحمهُ الله مواظباً على الجماعةِ والتلاوة، يَختمُ كلَّ جمعة، ويَختمُ في رمضان كلَّ يوم، ويعتكفُ في المنارةِ الشرقية من جامع دمشق، وكان كثيرَ النوافل والأذكار.

وقال عنه تلميذُه أبو المواهب: لم أَرَ مثلَه، ولا مَن اجتمَعَ فيه ما اجتمعَ فيه، من لزوم طريقةٍ واحدةٍ مدةَ أربعين سنة، من لزومِ الصلوات في الصفِّ الَأول إلاّ من عذر، والاعتكافِ في شهر رمضان وعشرِ ذي الحجة، وعدمِ التطلعِ إلى تحصيلِ الأملاك وبناء الدور، حيثُ أسقطَ ذلك عن نفسه، وأَعرضَ عن طلبِ المناصب من الإمامة والخطابة، وأَباها بعدَ أَنْ عُرضتْ عليه، وأَخذَ نفسه بالأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تأخُذُه في الله لومةُ لائم...[1]

أبيات فريدة في الاهتمام بالوقت والعلم

١٦ ـ وقد أوردَ الشيخُ عبدُ الفتاح أبو غدة بعضَ الأبياتِ الشعرية في الاهتمامِ بالوقت والحرصِ على طلب العلم، منها:

ـ قال بهاءُ الدين ابنُ النحاس:

---

(١) المرجع السابق: ٥٠ ـ ٥١.

اليَــوَم شَــيْءٌ وَغَــداً مِثْلُــهُ مِنْ نُخَبِ العِلْمِ التي تُلْتَقَطْ
يُحَصِّــلُ المَــرْءُ بِهــا حِكْمَــةً وَإِنَّمـا السَّيْـلُ اجْتِمـاعُ النُّقَـطْ

وقال ابنُ نباتَةَ السَّعْدي:

أَعـاذِلَتـي عَلى إِتْعـابِ نَفْسـي ورَعْيي في الدُّجى رَوْضَ السُّهادِ
إِذا شامَ الفَتى بَرْقَ المَعالي فَأَهْوَنُ فائِتٍ طِيبُ الرُّقادِ

ـ وقال الإمامُ السيوطي:

حَـدَّثَنـا شَيْخُنــا الكِنــانــيّ عَـنْ أَبِـهِ صـاحِـبِ الخِطـابَـةْ
أَسْرِعْ أَخـا العِلْـمِ فـي ثَـلاثٍ فـي الأَكْلِ وَالمَشْيِ وَالكِتابَةْ

ـ وقال الأديبُ عمارةُ اليمني:

إِذا كانَ رَأْسُ المالِ عُمْرَكَ فَاحْتَرِزْ عَلَيْهِ مِنَ الإِنْفاقِ في غَيْرِ واجِبِ
فَبَيْنَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالصُّبْحِ مَعْرَكٌ يَكُـرُّ عَلَيْنـا جَيْشُـهُ بِـالعجـائِـبِ

ـ وقالَ أَميرُ الشعراء أحمد شوقي:

دَقّاتُ قَلْبِ المَرْءِ قائِلَةٌ لَهُ إِنَّ الحَيـاةَ دَقـائِـقٌ وَثَـوانـي
فَارْفَعْ لِنَفْسِكَ بَعْدَ مَوْتِكَ ذِكْرَها فَالذِّكْرُ لِلإِنْسانِ عُمْرٌ ثاني

وقال الإمامُ أحمدُ بنُ فارس الرازي صاحب «مقاييس اللغة»:

إِذا كانَ يُؤْذيكَ حَرُّ المَصيفِ وَيُبْسُ الخَريفِ وَبَرْدُ الشِّتا
وَيُلْهيكَ حُسْنُ زَمانِ الرَّبيع فَأَخْذُكَ لِلْعِلْمِ قُلْ لي: مَتىٰ؟!

ـ وقال الوزيرُ الصالحُ الفقيهُ يحيى بن هبيرة:

والوَقْتُ أَنْفَسُ ما عُنيتَ بِحِفْظِه وَأَراهُ أَسْهَـلُ مـا عَلَيْـكَ يَضيـعُ

نمـاذج للإقتداء

هذه بعضُ النماذج التي انتقيناها من رسالةِ الأستاذِ الشيخِ عبد الفتاح أبو غدة: «قيمةُ الزمن عند العلماء». وننصحُ الإخوة القراءَ بقراءة هذه الرسالة، وقراءةِ كتابه اللطيفِ المفيد «صفحاتٌ من صبرِ العلماء على شدائدِ العلم والتحصيل»، فإنه فريدٌ في بابه، يثيرُ حماسَ الراغبِ في العلم والمعرفة.

ونقدمُ هذه المناذجَ للإخوة القراء، لتكونَ حافزاً لهم لبذلِ المزيدِ من الحرصِ والاهتمامِ بالعلم، والاهتمامِ بالوقت، وليقتدوا بالعلماءِ الأعلام، الذينَ صدرتْ عنهم تلك التعبيرات، أو حصلتْ منهم تلك المواقفُ واللقطات.

ونجعلُ هذه النماذجَ تمهيداً للوصايا والإرشادات، والنصائحِ والتوجيهات، في الصفحاتِ القادمة إن شاء الله.

* * *

صحة المنطـلق

بعدَ كلامِنا عن عصْرِ العمرِ واستغلالِه في الصالحات، ووجوب التواصي والتناصح حولَه، وعَرْضِنا لنماذجَ من العلماء السابقين الحريصين على أوقاتهم وأَعمارهم وعلمهم، ننتقلُ بالقراءِ الكرام إِلى «نقطة البدء» في عملية التحصيل العلمي، وتتمثلُ نقطةُ البدء في «صحةِ المنطلق».

صحة المنطلق هي نقطة البدء

إنَّ صحةَ المنطلق هي الأساسُ في المسارِ الصواب في العلم والتعلم، والفقهِ والتفقه.

وتبدو صحةُ المنطلق في استحضارِ النية، وتحقيقِ الإخلاص، والتوجُّهِ بالأعمال كلها إلى الله سبحانه، وطلبِ الأَجر منه وحده، وعدمِ الإلتفاتِ إِلى الناس، وعدمِ قصدهم بالأعمال، وترْكِ ريائهم، لأنَّ هذا شركٌ بالله، محبطٌ للأعمال، ذاهبٌ بأجرها.

لقد أَمَرَنا اللهُ بالإخلاص في الأعمال كلِّها، وجعْلِها خالصةً لوجهه وحدَه.

آيـات في الإخلاص

قال الله عز وجل: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ [الزمر: ٢ ـ ٣].

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٢ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴾ [الزمر: ١١ ـ ١٤].

وقال تعالى: ﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٨ ـ ٩].

أحـاديث صحيحة في الإخلاص

وقد أمر رسول الله ﷺ «بالإخلاص، وإحضارِ النية، في جميعِ الأعمال والأقوال البارزة والخفية»[١]، وجاء هذا في عدةِ أحاديث صحيحة، منها:

١ ـ ما رواه البخاريُّ ومسلم وأبو داود والترمذي والنَّسائي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ

---

(١) هذا عنوان الباب الأول في كتاب «رياض الصالحين» للإمام النووي.

يقول: إنما الأعمالُ بالنيات، وإِنما لكلِّ امرىء ما نوى، فمن كانتْ هجرتُه إلى الله ورسوله، فهجرتُه إلى الله ورسوله، ومَن كانت هجرتُه لدنيا يصيبُها، أو امرأة ينكحها فهجرتُه إلى ما هاجرَ إليه.

٢ ـ وما رواه البخاريُّ ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سُئلَ رسولُ الله ﷺ عن الرجل يقاتلُ شجاعة، ويقاتلُ حميَّة، ويقاتل رياء، أيُّ ذلك في سبيل الله؟

فقالَ رسولُ الله ﷺ: مَنْ قاتلَ لتكون كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيلِ الله.

٣ ـ وما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: إن اللهَ لا ينظرُ إلى صوركم، وأموالكم، ولكن ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالكم..».

٤ ـ وما رواه مسلمٌ والترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: إنَّ أولَ الناس يُقضىٰ عليه يومَ القيامة، رجلٌ اسْتُشْهِد، فأُتيَ به، فعَرَّفَه نعمتَه، فَعَرفَها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى اسْتُشْهِدت! قال: كذبْتَ، ولكنك قاتلْتَ لأنْ يقال: جريء، فقد قيل، ثم أُمر به، فسُحبَ على وجهه، حتى أُلقيَ في النار.

ورجلٌ تعلمَ العلمَ وعلَّمه وقرأ القرآن، فأُتيَ به، فعرَّفَه نِعَمه فعرفها، قال: فما عملْتَ فيها؟ قال: تعلمْتُ العلم وعلَّمْتُه،

وقرأْتُ فيك القرآن! قال: كذبْتَ، ولكنك تعلمتَ ليُقال: عالم، وقرأْتَ القرآن ليُقال: هو قارىء! فقد قيل، ثم أُمِرَ به، فسُحبَ على وجهه، حتى أُلقيَ في النار.

ورجلٌ وسَّعَ اللهُ عليه، وأَعطاه من أصنافِ المال، فأُتيَ به، فعَرَّفَه نِعَمه، فعَرَفها، قال: فما عملْتَ فيها؟ قال: ما تركْتُ من سبيل تحبُّ أنْ ينفَقَ فيها إلا أنفقْتُ فيها لك! قال: كذْبتَ، ولكنك فعلت، ليُقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أُمِرَ به، فسُحبَ على وجهه، ثم أُلقيَ في النار..

ولما سمعَ معاويةُ بنُ أبي سفيان رضي الله عنه الحديث، بكى حتى أُغميَ عليه، فلما أَفاقَ قال: صدقَ اللهُ ورسولُه، قال الله عز وجل: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ... ﴾ [هود: ١٥ ـ ١٦][(١)].

٥ ـ وما رواه مسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاءِ عن الشرك، مَنْ عملَ عملاً أَشركَ فيه معي غيري، تركْتُه وشركَه.

٦ ـ وما رواه أبو داود وابن ماجة وأحمد بإسنادٍ صحيحٍ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: مَنْ تعلمَ علماً

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب ـ طبعة الأرناؤوط ـ ١: ٧٧.

مما يُبتغىٰ به وجْهُ الله عز وجل، ولا يتعلَّمُه إلا ليصيبَ به عَرَضاً من الدنيا، لم يجدْ عَرْفَ الجنة يوم القيامة[1].

صحة البداية لصحة النهـاية

على المسلمِ الحريص على طلبِ العلم أنْ يكونَ منطلقُه صحيحاً، وبدايته سليمة، وأساسُه قوياً متيناً.

والقاعدةُ في هذا المقام تقرر: مَنْ صحَّتْ بدايتُه استقامتْ طريقُه وصحَّتْ نهايتُه، ومَنْ فسدتْ بدايتُه اعوجَّتْ طريقتُه وساءت نهايتُه.

فعلى الراغب في تحصيلِ العلم والانتفاعِ به ونفْعِ الآخرين به أنْ يحققَ النيةَ عند بدايته لطلبِ العلم، وأنْ يبقى مستحضراً لها كلَّ يوم، حتى يلقى الله، وأن ينويَ التقربَ إلى الله بعلمه، كلَّما أقبلَ على العلم، قراءةً أو كتابة أو تعليماً للآخرين.

إذا طلبَ العلمَ لغير الله لم يقبلْه اللهُ منه، وخسرَ الدنيا والآخرة، وإذا كان معجباً بعلمه صاحبَ تيهٍ وافتخار، وتكبُّرٍ واستعلاء، مقتَه الله وسخط عليه، ومُحقتْ بركةُ علمه.

(١) انظر هذه الأحاديث وغيرها في كتاب «رياض الصالحين» للإمام النووي: باب الإخلاص، وباب تحريم الرياء.

أقوال مأثورة في ذم الفخر والمباهاة

قالَ أبو الدرداء رضي الله عنه: علامةُ الجهل ثلاث: الإعجابُ بالنفس، وكثرةُ الكلام فيما لا يَعنيه، وأَنْ يَنهى عن شيء ويأتيه.

وقال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: الإعجابُ آفةُ أُولي الألباب.

وقال الفضيلُ بن عياض رحمه الله: ما منْ أَحدٍ أَحبَّ الرياسةَ إلاّ حسدَ وبغى، وتَبعَ عيوبَ الناس، وكَرهَ أنْ يُذكرَ أَحدٌ بخير.

وقال سفيانُ الثوري رحمه الله: مَنْ أحبَّ الرياسة فليُعِدَّ رأْسَه للنِّطاح، وقد كنتُ أتمنّى الرياسةَ وأنا شاب، فكنتُ أَرى الرجلَ عند سارية المسجد يُفتي فأَغبطه، فلما وَصلت الرياسةُ عرفْتُها!!.

وقال مالك بنِ دينار رحمه الله: مَنْ تعلمَ العلمَ كَسره العلمُ وتواضع، ومَن تعلّمه لغيرِ العمل زادَ فخراً وتكبراً[1].

كيف يضيع تعبه بالريـاء؟

على الراغبِ في تحصيلِ العلم أنْ يكون حريصاً على تعلُّمِه

---

(١) انظر هذه الأقوال وغيرها في: جامع العلم وفضله لابن عبد البر: ١٨٨ ـ ١٩٤.

ووقْته وجهده وتعبه، وأنْ «يعزَّ» عليه ما يبذلُه في سبيل تحصيله، وأنْ لا يضيعَه ويبددَه طلباً للفخرِ والمباهاة، ورياءً للناس، ورغبةً في نيل ثنائهم.

كيف «يَهون» عليه جهدُه، فيضيعُه لأتفهِ الأشياء؟ وماذا يستفيدُ إذا راءى الناس؟ ماذا سيقدمُ له الناس عندما يُثنون عليه؟ وبماذا سينفعونَه عندما يمدحونَه؟

الواعي البصير هو الذي يتوجُّه بجهدِه وعلمِه وكَدِّه وتحصيلِه إلى الله، راجياً منه وحْدَه حسنَ الأجرِ والثواب!

وليستحضرِ الأحاديثَ الصحيحة في كتبِ الصحاحِ والسنن والمسانيد، التي تقررُ فضْلَ العلم، وفضْلَ طالب العلم، ومنزلةَ العالم عند الله، وأنْ «يتشوقَ» لذلك الأجرِ الجزيل الجميل الذي ينتظرُه عند الله.

هذا كلُّه كفيلٌ بطرد وساوسِ الرياء والفخر والعجب في نفسه، وعدم جعْلِ علمه وسيلةً للرئاسة والمنفعة والمصلحة، وتوجيهِه عملَيةَ «التحصيل العلمي» كلِّها إلى الله وحده.

ولْيرددْ مع العالمِ الأبيِّ القاضي الجرجاني قولَه في العلم:

أَأَشْقىٰ بِهِ غَرْساً، وأَجْنيهِ ذِلَّةً؟ إذاً فَاتِّباعُ الجَهْلِ قَدْ كانَ أَحْزَما!

* * *



أخلاق أساسية لصاحب العلم

شخصيةُ صاحب العلم شخصيةٌ إسلامية علمية، وهو متفقهٌ بالإسلام، مدركٌ لحقائقه، متفاعلٌ مع توجيهاته. وشخصيتُه انعكاسٌ للإسلام، وتطبيقٌ عمليٌّ لنصوصه، وتحقيقٌ واقعيٌّ لمبادئه.

وهذا يعني أنْ تتحققَ فيه «الأخلاقُ الأساسية» التي دعا إليها الإسلام، وطالبَ كلَّ مسلم أنْ يتخلقَ بها، وأنْ يحوِّلَها إلى حقائقَ حياتية مُعاشة، وسلوكٍ واقعيٍّ اجتماعي.

لا يعيشُ صاحبُ العلم «ازدواجيةً» مَرَضية، بمعنى أنه لا يوجَدُ عنده «مفارقةٌ» بين ما يقرؤه في الكتبِ العلمية، وبين ما يعيشُه في واقعِه، ولا يُعاني من «انفصامٍ» بينَ الأفكارِ والمُثُل النظرية، وبين التطبيقِ السلوكيِّ الخارجي.

ذم الازدواجية بين الفكر والسلوك

إننا نعلمُ أنَّ «الازداوجيةَ بين الفكر والسلوك» هي من أشدِّ وأخطرِ الأمراضِ التي يعاني منها المسلمون المعاصرون، حيث يعيشون - إلاّ مَنْ رحمَ الله - فصاماً نكداً بين النظرياتِ وبين

الحياتيات، فأخلاقُ الإسلام وتوجيهاتُه في واد، وحياةُ هؤلاء المسلمين العملية في وادٍ آخر، لا تجدُ رابطةً ولا صلةً بين ما يؤمنون به من عالم الأخلاق والفضائل، وبين ما يعيشونه ويمارسونَه في عالم الواقع!

يجبُ على صاحبِ العلم أنْ يتخلقَ بأخلاق الإسلام وتوجيهاته عملياً، وأنْ تتعمقَ الأخلاقُ الأساسية في كيانه، وأنْ تظهرَ هذه الأخلاقُ الأساسيةُ في سلوكه وحياتِه وصِلاتِه مع الآخرين.

ونشير فيما يلي إلى أهمِّ الأخلاق الأساسية الضرورية لصاحب العلم:

١ ـ الإخلاص:

وقد تحدَّثْنا عن أهميةِ الإخلاص لله وتركِ الرياء، في المبحث السابق، عند حديثنا عن صحة المنطلق، وأوردْنا بعضَ الآيات والأحاديث الصحيحة والآثار.

ونضيفُ هنا بعضَ الحقائق واللطائف:

الإخلاصُ مصدرُ الفعل الرباعي أَخلص، تقول: أخلص، يُخلص إخلاصاً. والفعلُ الثلاثي: خَلص.

تقول: خَلَص، يَخْلُص، فهو خالِص.

وتقول: أخلص، يُخْلص، فهو مُخلص.

مرحلتان للإخلاص: خلوص ثم إخلاص

والفعلان يدلان على مرحلتين:

المرحلةُ الأولى: خلصَ واشتقاقاتُها.

والمرحلةُ الثانية: أَخلص واشتقاقاتها.

على صاحبِ العلم أنْ يكون خالِصاً لله في كلِّ كيانه، وأنْ يكون خلوصُه لله خلوصاً تاماً صافياً، فالخلوصُ لا يكون إلا لله.

وإذا كان صاحبُ العلم خالصاً لله، كان دينُه خالصاً لله، واستسلامُه خالصاً لله، وحياتُه خالصةً لله.

إن اللهَ لا يرضى من المسلم إلاّ أن يكونَ خلوصُه لله على هذه الصورة الصافيةِ الشاملة، وأن يكونَ دينُه واستسلامهُ لله على هذا المستوى من الخلوص والصفاء، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢ ـ ٣].

وبعد ما يحققُ صاحبُ العلم المرحلةَ الأولى، وهي خلوصُه المطلق لله، ينتقلُ للمرحلة الثانية، وهي إخلاصُه لله.

الإخلاصُ لله هو روحُ كل دين، وهو خلاصةُ الأوامر الربانية للمسلمين السابقين، أتباع الأنبياء والمرسلين، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

فدينُ القيمة هو الذي يحققُ إخلاصَ أَتْباعه لله، ذلك الإخلاصُ المتمثلُ في إقامة الصلاة وإيتاءِ الزكاة، ومتى خلصَ المسلمُ لله، فقد أخلصَ دينَه لله، وأخلصَ حياتَه لله، وكان حنيفاً مستقيماً على طريق الله.

ويمثلُ هذه المرحلةَ الثانية ـ الإخلاص لله بعد الخلوص الصافي له ـ قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ. . .﴾ [الزمر: ١١ ـ ١٥].

ثلاث خطوات: خالص مخلِص مخلَص

وبعدما يحققُ طالب العلم المرحلتين السابقتين: الخلوصُ ثم الإخلاص لله، فإن اللهَ يكرمه، لما يعلمُ من صْدقِه وإخلاصِه، حيث يستخلصُه من بين سائرِ خلقه، فيكونُ «خلاصةَ» الناس وصفوتَهم عند الله، أي يكون «مُخْلَصاً» ـ بفتح اللام ـ.

المخلَص ـ بفتح اللام ـ هو اسمُ المفعول من فعل «أَخلص»: أخلص، يخلص، إخلاصاً، فهو مُخْلِص، ثم مُخْلَص.

وقد وصفَ اللهُ الأنبياءَ بأنهم من عباده المخْلَصين، لأنهم كانوا خالصين لله أولاً، ثم مخلِصين له بعد ذلك، فاستخلَصهم وجعلَهم مُخْلَصين له.

وهذا ما وصفَ اللهُ به نبيَّه يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤].

وقد أخبرَنا اللهُ أنَّ إبليسَ اللعينَ ليس له سلطانٌ على عباد الله المخْلَصين، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ۝ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٢].

لا بدَّ لصاحبِ العلم أنْ يتصفَ بهذه الصفات الثلاثة:

فهو أوّلاً خالصٌ لله في شخصيتِه وكيانِه وحياتِه ودينِه.

وهو ثانياً مُخْلِص لله، في شخصيته وكيانه وحياته ودينه.

وهو بعد ذلك «مُخْلَصٌ» يستخلصه الله، ويجعلُه خلاصَةَ عباده!!.

٢ ـ الصدق:

الصدقُ صفةٌ أساسية من صفاتِ أهلِ العلم، صفةٌ متعمقة في كيانهم، وتنعكسُ على حياتِهم وتصرفاتهم، وتُظَلِّلُ أقوالَهم وأعمالَهم.

والصدقُ يحملُ معاني القوةِ والثبات والشدة والوضوح، وهو ثمرةٌ للإسلام وحقائقه، وكلما ازدادَ أهلُ العلم التزاماً بالإسلام، ازدادوا صدقاً وقوة وثباتاً.

نصوص في الصدق

وقد جاءَ الأمرُ بالصدق والنهيُ عن الكذب في حديثِ رسول الله ﷺ:

روى البخاريُّ ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: إنَّ الصدقَ يهدي إلى البرّ، وإنَّ البر يهدي إلى الجنة، وإنَّ الرجلَ ليصدقُ حتى يُكتبَ عند الله صِدّيقاً. وإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجور، وإن الفجورَ يَهدي إلى النار، وإن الرجلَ ليكذب، حتى يُكتبَ عند الله كَذّاباً.

وأمرَ اللهُ المؤمنين بأن يكونوا مع الصادقين، فلا يكتفونَ بالصدق، ولكن ينتقلون ليكونوا مع الصادقين، وهذه المعيةُ والمعايشةُ تُعمقُ الصدقَ في كيانهم. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ... ﴾ [التوبة: ١١٩].

والصدقُ صفةٌ أساسيةٌ للمسلمين والمسلمات، يُضافُ إلى صفاتٍ أُخرى، جمعها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وعندما يعيشُ أهلُ العلم حياتَهم بالإسلام والعلم صادقين، يكونون قَدْ صَدقوا اللهَ في حياتهم، ويستحقونَ الشهادةَ والثناءَ من الله، في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

آفاق وميادين الصدق المطلوب

وعندما نتكلمُ عن الصدق عند أهل العلم، لا نقصرُه على الصدِق في الكلام والحديث، فهذا أَمرٌ بدهيٌّ أساسي، لا بدَّ أنْ يكونَ عند كل مسلم، ولو لم يكن من أهل العلم، فالمسلمُ مكلَّفٌ أنْ يصدقَ في حديثه، ويَحرمُ عليه الكذب في الحديث، وإذا كان الكذبُ قبيحاً عند المسلم العادي، فهو أَكثرُ قبحاً واستنكاراً عند صاحب العلم.

صاحبُ العلمِ يكون صادقاً في كلامِه وحديثه، ويكون صادقاً في فعْلِه وسلوكه وتصرفاتِه وأعماله، ويكون صادقاً في التزامه، وصادقاً في تعلُّمه وتعليمه، وصادقاً في نشاطِه ودعوتِه، وصادقاً في إيمانه وعبادته، وصادقاً في أُخوته ومحبته.

صاحبُ العلم يكون صادقاً مع الله، صادقاً مع إسلامِه، صادقاً مع نفسِه، مع قلبِه وعقِله وضميرِه، صادقاً مع أهلِ بيته، صادقاً مع إخوانِه وأصدقائه، صادقاً مع مَن يتعاملُ معهم.

فهذا الصدق بمعناه العامِّ الشامل، مَعْلَمٌ بارزٌ من معالمِ شخصيةِ صاحب العلم.

٣ ـ الجدية:

صاحبُ العلم جادٌّ في حياته، وفي سلوكه، وفي قضاءِ وقته، وهذه الجديةُ تنعكسُ على جميعِ جوانب حياته، وتُلازمه في جميعِ سنواتِ عمره.

الإسلامُ يريدُ من المسلم أنْ يكون جادّاً جدّيّاً، لا أنْ يكونَ لاهياً عابثاً لاعباً، لا أنْ يكون ضائِعاً مع الضائعين، يُضيعُ عمْرَه في الأوهام والتفاهات، ويُمضي ساعاتِه في الغفلةِ والخداع، واللغو والعبث.

أهلُ العلم هم عبادُ الرحمن، ويجبُ أنْ يتحققَ فيهم قولُ الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

ولذلك لا يشاركونَ اللاّهين لهوهم، ولا العابثين عبثهم، ويُنفذون قولَ الله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا . . . ﴾ [الأنعام: ٦٨ ـ ٧٠].

الواجبات أكثر من الأوقات

جدّيةُ صاحبِ العلم منبثقةٌ من حُسنِ فهمه لإسلامه، وحسْنِ

نظرتِه لعمره وحياته، وحسْنِ إدراكه لوظيفته ورسالته، وحسْنِ شعوره بأهمية استغلال وقته وعَصْرِ عمره، وحسْنِ برمجته وتخطيطه لأوقاته وساعاته.

إنه يعلمُ أنَّ «الواجباتِ أكثرُ من الأوقات» ولذلك يستفيدُ من كلِّ يومٍ وساعةٍ ولحظة من وقته، ويعتقدُ أنه لا يجدُ عنده ساعةً يُمضيهاً في اللهو والعبث، وهو لا يعاني من «أَوقاتِ الفراغ» التي يُعاني منها معظمُ الناس الفارغين من الاهتمامات الكبار، ولكنه يعاني من «تزاحمِ» الأعمالِ والواجبات، ويُعاني من «قلةِ الوقت»، ويتمنّى لو كان الوقتُ يُشترى بالمال، إذن لاشترىٰ أَوقاتَ الفارغين والضائعين واللاهين!

مظاهر جدية صاحب العلم

إنكَ لا ترى صاحبَ العلم مشاركاً في الصخب العام، ولا في الحفلاتِ الاجتماعية الكثيرة، لا تراه دائمَ الخروج والزياراتِ والترددِ على تلك الأماكن التي تَسرقُ الأوقاتِ والأعمار.

لا يَليقُ بصاحبِ العلم أنْ يجلسَ الساعات الطوال أمام التلفزيون، يتابعُ مسلسلاتِه وتمثيلياته، ولا أنْ يُكثرَ من الزياراتِ الاجتماعية التي يُنفقُ فيها ساعاتِ عمره، ولا أنْ يُكثرَ من الجلسات الفارغة مع الفارغين، يضيعُ وقْتَه معهم في اللهو والعبثِ والسخرية والغيبة والكذب.

صاحبُ العلم جادٌّ جَدّي، وقتُه مع كتبه وأوراقه. فتجدُه

جالساً على مكتبه، قارِئاً دارساً، أو كاتباً مدوِّناً، أو ناظراً مفكِّراً، أو تجدُه مع إخوانِه في مسجدٍ أو بيت أو نادٍ أو مؤسسة، متكلماً معلماً موجهاً ناصحاً، لا يغادر كتابَه، ولا يفارقُ قلمُه يدَه، ولا يخرجُ عن دفاتره وأوراقه!

الجدية لا تعني الانعزال أو العبوس

وأُسارعُ فأقول: إن جدية صاحب العلم لا تَعني أنْ «ينعزلَ» عن الناس، وأنْ «يهربَ» من المجتمع، فلا يجوزُ لصاحبِ العلم أنْ يهجرَ أهْلَه وأقاربه، ولا أنْ يقطعَ أرحامَه، ولا أنْ يتركَ إخوانه وأصدقاءه وجيرانه، يجبُ عليه أنْ يشاركَ في الواجبات الاجتماعية والإسلامية والدعوية.

على صاحبِ العلم أنْ «يوازنَ» موازنةً دقيقةً حكيمة، بين واجباته الاجتماعية والدعوية، فيقومُ بها ويؤديها، وبينَ علْمِه وتعلمه فيعطيه حقه، إنه يعطي كلَّ ذي حق حقَّه، فلا يَطغىٰ عنده حقٌّ على حق، ولا يقصرُ في واجبٍ على حساب واجب آخر.

كما أُسارِعُ فأقول: إنَّ جديةَ صاحب العلم لا تعني أنْ يكونَ عابساً، مقطِّبَ الجبين، بحجةِ الجدية العلمية، فالعَبوس و(الكَشَرَةُ) في الوجه مرضٌ نفسيٌّ واجتماعي، يجبُ أنْ يتخلصَ صاحبُ العلم منه.

عليه أن يكونَ دائمَ الابتسامة والبِشْرِ والأريحية، وأنْ يكونَ

وَدوداً لطيفاً، هَيِّناً ليناً، سعيداً مسروراً، هاشَّاً باشَّاً، ليحبَّه الناس، ويرغبوا في عمله.

٤ ـ التكامـل المتوازن:

شخصيةُ صاحبِ العلم متكاملةٌ في الأخلاق الإسلامية، متوازنةٌ في الصفات الأساسية، بمعنى أنه لا يَطغىٰ فيها خلقٌ على غيره، ولا تطغى صفةٌ على غيرها، ولا يبالغُ في جانب ضروري على حسابِ جوانبَ أُخرى ضرورية.

هذا التوازنُ والتكاملُ في شخصيةِ صاحب العلم أَخذَه من الإسلام العظيم نفسه، فنعلمُ أنَّ إسلامَنا نظامٌ عامٌّ شامل، متكامل متوازن، ينسقُ بين جميع الخيوطِ والخطوط، ويجمعُ بين كلِّ الحقائق والتوجيهات المتقابلة.

التكامل المتوازن في شخصية الرسول ﷺ

ويقتدي صاحبُ العلم في تكامُلِ صفاته وتوازنها برسولِ الله ﷺ، الذي جعلهُ اللهُ قدوةً وأسوةً لمن بعده: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

إنَّ أهمَّ صفاتِ رسول الله ﷺ هي «التكاملُ المتوازن» في شخصيته، بحيث توفرتْ فيها كلُّ الصفاتِ الأساسية، على أتمِّ وأرفعِ صورها، واجتمعتْ هذه الصفاتُ بدون تعارُضٍ أو تناقضٍ أو تصادم، ولم تطغَ صفةٌ على غيرها، ولم يُبدعْ في جانبٍ على

حساب جوانَب أخرى، وهذه بعضُ مظاهرِ عظمةِ رسول الله ﷺ، التي أهَّلَتْه ليكونَ مَثَلاً أعلى وقدوةً سامية، للمسلمين من بعده.

كان عليه الصلاةُ والسلام القدوةَ العليا السامية في كل شيء، في الصبرِ والحلم، والرحمة والكرم، والتواضع والرفق، القدوةَ العليا في الإيمان، والعبادة، والعلم، والدعوة، والجهاد، القدوةَ العليا في التعليم والتربية، في البيت والأسرة، في القيادة والمسؤولية، في إدارةِ أُمورِ المسلمين وحلِّ مشكلاتهم.

تجمعتْ في شخصيةِ الرسول عليه الصلاة والسلام كلُّ هذه الخيوط والخطوط، بصورةٍ متكاملةٍ متوازنة، وبَقيتْ مَعْلَماً بارزاً، تدعو المسلمين إلى حسْنِ الاقتداءِ والاتِّساءِ به عليه الصلاة والسلام.

الشخصية العلمية العملية المتوازنة

إذا ما أُعجبَ صاحبُ العلم في حقلٍ من حقول العلم، أو ميدانٍ من ميادين العمل، أو لونٍ من ألوان العبادة، فلا يجوزُ أنْ يبالغَ فيه على حسابِ غيره، بل عليه أن يوازنَ وينسِّقَ بينه وبين غيره من الحقولِ والميادين والألوان، بحيثُ تجتمعُ كلُّ هذه الجوانب، وتُحققُ «التكاملَ المتوازن» في شخصيتِه الإسلامية المتوازنة.

قد يرغبُ صاحبُ العلم في التفسيرِ مَثَلاً، لا مانع من ذلك، لكن ليسَ على حساب باقي حقولِ العلم، فلا بدَّ أنْ يأخذَ الحدَّ

الأدنى من العلم بالعقيدة والحديث والفقه واللغة والتاريخ والحضارة، إِضافةً إِلى زيادةِ اهتمامِه بالتفسير.

وقد يفضِّلُ صاحبُ العلم الخطابةَ مثلاً، جيدٌ وطيب، لكن ليسَ على حسابِ الحديثِ والدرس والكتابة، فعليهِ أنْ يجيدَ الخطابة والتدريس والمحادثة والكتابة.

وقد يُؤْثِرُ صاحبُ العلم الجلوسَ مع كتبه وأوراقه وعلمه، وهذا أمر لا بُدَّ منه، لكن ليسَ على حساب باقي واجباته، فأين واجباتُه الاجتماعية؟ وأين واجبُ النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ وأين واجبُ التعليم والتبليغ ونشر الدعوة؟

٥ ـ السلوك الاجتماعي المتفوق

شخصيةُ صاحبِ العلم شخصيةٌ إسلاميةٌ اجتماعية، وهو ناجحٌ في وسطه الاجتماعي وتعاملِه مع الآخرين، لأنه يصدرُ في سلوكه الاجتماعي من مبادىء وتوجيهاتِ الإسلام، ولأنَّ شخصيتَه الاجتماعيةَ انعكاسٌ للإسلام وتطبيقٌ له.

ولا يجوزُ لصاحبِ العلم أنْ يكونَ ناجحاً مع كتبه وأوراقِه وعلمه، ولكنه فاشلٌ مع إخوانِه وأهلِه ومعارفه، وماذا ينفعُه علمه إنْ لم يوجِّهْ له حياتَه؟ وماذا ينفعُه علمه إنْ خسرَ كلَّ الناس من حوله؟ فصارَ منبوذاً مكروهاً!

وجوب التخلص من الأمراض الأخلاقية الاجتماعية

يجبُ على صاحبِ العلم أنْ يجاهدَ نفسه للتخلصِ من الأمراضِ الباطنة، مثل: الكبر والغضب، والحقد والحسد، وسوء الظن واحتقار إخوانه، وأنْ يجاهدَ نفسه للتخلصِ من الأمراض الاجتماعية مثل: الظلم والكذب، والغيبة والنميمة، والسخرية والاستهزاء، والسب واللعن، والغدر والغش، وخلف الموعد، ونقض العهد. . .

يجبُ أنْ يصبغَ العلمُ صاحبَه بصبغته، ويطبَعَه بطابعه، بحيث تكونُ شخصيتُه ترجمةً عمليةً حية لمعلوماتِه العلمية النظرية، وبذلك يكونُ صاحبَ سلوكٍ اجتماعيٍّ إسلامي متفوق، متحلّياً بالفضائلِ الأخلاقية المسلكية، متخلّياً عن الرذائل والآفات والنقائص والأمراض.

صاحبُ العلم هيِّن ليِّن، حليمٌ شفيق، رحيمٌ ودود، رفيقٌ كريم، صاحبُ سماحةٍ ورأفة، واسعُ الصدر، طيبُ النفس، حسنُ الخلق، يحتملُ الأذى، ويستوعبُ الخطأ، ويدفعُ السيئة بالحسنة، ويعفو عن المخطىء، ويُثني على الإيجابيات والفضائل.

يتخلقُ في هذه الميادين بأخلاقِ الإسلام العظيم، ويقتدي برسول الله ﷺ، الذي أَدَّبَه ربُّه فأحسنَ تأديبه، وشهدَ لسموِّ أخلاقه وعظمتها، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

[القلم: ٤].

نصوص قرآنية في السلوك الاجتماعي

يتذكرُ صاحبُ العلم في سلوكه الاجتماعي المتفوق آياتِ القرآن التي تحثُّ على مكارم الأخلاق الاجتماعية، ويتخلَّقُ بها في حياته.

منها قولُ الله عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومنها قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومنها قولُه تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ومنها قولُه تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ

وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٤].

هذه خمسةُ أخلاقٍ أساسية، ضروريةٌ لصاحب العلم، ويتفرعُ عنها مجموعةٌ أُخرى من الأخلاق الفرعية، حثَّ عليها الإسلام ودعا إليها، ونهىٰ عن أَضدادِها المتناقضةَ معها.

وعندما يتخلقُ صاحبُ العلم بهذه الأخلاق وما يتفرعُ عنها، يكون صاحبَ شخصيةٍ علميةٍ إسلاميةٍ سويةٍ!!.

* * *

خطوط أساسية في الشخصية العلمية

تكلمنا في المبحث السابق عن خمسةٍ من الأخلاقِ الأساسية لصاحب العلم، وهي: الإخلاصُ، والصدقُ، والجدية، والتكامل المتوازن، والسلوك الاجتماعي المتفوق، وطالَبْنا أنْ يتخلقَ صاحبُ العلم بها وبما تفرعَ عنها من أَخلاقٍ فرعيةٍ ضرورية.

ونقفُ هنا لنتكلمَ عن «خطوطٍ أَساسية» في شخصيةِ صاحبِ العلم، لا بدَّ من أنْ يتحققَ كلُّ خطٍّ منها في شخصيته، ثم يتعمقَ فيها، ثم يلتقي مع الخطوط الأخرى، ويتناسقَ معها، بحيث ينتجُ عن تلك الخطوطِ الكيانُ المتكاملُ المتوازن لصاحب العلم.

١ ـ الخط الأول: الربانية:

«الربانية» نسبةٌ إلى الربِّ سبحانه وتعالى. وهي نسبةُ تكريمٍ وتشريف.

وللربانيةِ بُعْدُها التربوي، بحيث يتربّى صاحبُ العلم على الكتاب والسنة، وتظهرُ عليه آثارُ التربيةِ النافعة المؤثرة المشرقة، وتتعمقُ فيه «الربانية»، وتوجِّهُ حركتَه ونشاطه.

ربانية الربانيين

والتربيةُ هي: إنشاءُ الشيء حالاً فحال، إلى حدِّ التمام، فيلاحَظُ في التربية: التدرج، والبطء، والشمول، حتى يرتقي صاحبُ العلم الذي يتلقى التربية، ويتفاعلُ معها.

وصاحبُ العلم رباني، يعتزُّ بانتسابِه إلى الربِّ المربي سبحانه وتعالى، ويربّي نفسَه على الإسلام، ويربّي نفسه بالعلم ومسائله ومباحثه، سواء كانتْ صغيرةً أو كبيرة، ويربّي نفسه بالعلم والتنفيذ والالتزام.

وقد أمرَ اللهُ المؤمنين أنْ يكونوا ربانيين، منتسبين إلى الرب، يربّون أَنفسهم على منهاجه وشرعه.

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

وتنصُّ الآيةُ على وسيلتين لتحقيقِ الربانية وتعميقِها في الشخصية الإسلامية، ودلَّتْ على الوسيلتين «باءُ السببية» المذكورة مرتيْن في الآية: «بما كنتم تعلمون الكتاب» و«بما كنتم تدرسون».

الوسيلةُ الأولى: «بما كنتم تعلِّمون الكتاب»: تعليمُ الآخرين

الكتابَ والقرآن، ونشرُ العلم بينهم، وتربيتهم على ذلك المنهج الرباني.

الوسيلةُ الثانية: «وبما كنتم تدرسون»: أي: أنْ يَدرسَ الربانيُّ صاحبُ العلم ويتعلم، ويربّي نفسه بعلمه ودراسته.

بين الربانيين والربيين

وقد تكلمتْ آياتُ سورةِ آل عمران عن الرِّبِّيّين، كما تكلمتْ عن الربانيين. وكلامُها عن الرّبّيين في قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

[آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨].

والرّبّيون هم المؤمنون الكثيرون، الذين ساروا مع أنبيائهم، ونصروهم، وقاتَلوا أعداءهم، وقد ذَكرت الآياتُ مجموعةً من الصفاتِ الطيبة الفاضلة لهم، ونفَتْ عنهم الرذائلَ والنقائص.

فهم متخلِّصون من أَمراضِ الوهن والضعف والاستكانة، ومتصفونَ بصفاتِ الصبرِ والإحسانِ والجهاد، والإقبالِ على الله، ومتابعة الأنبياء. ولذلك يمنُّ اللهُ عليهم بالنصرِ والتمكين.

والرّبّيون المجاهدون ربانيون، والربانيةُ هي التي أَهَّلتهم للاتصافِ بالصفات الإيجابية المذكورة في هذه الآيات.

إنَّ «الربانيةَ» خطٌّ واضح في شخصيةِ صاحب العلم، وجَذرٌ أصيلٌ متعمِّقٌ في كيانه، وخيطٌ دقيق متين، يَشدُّ إليه كلَّ جزئياتِ نفسه، وكلَّ مجالات حياته.

صاحبُ العلم ربانيٌّ في هدفه، ربانيٌّ في وسيلته، ربانيٌّ في قلبه، ربانيٌّ في عقله، ربانيٌّ في علمه، ربانيٌّ في حواسه، ربانيٌّ في ساعات يومه، ربانيٌّ في تعامله مع الأقربين والآخرين.

إنه مع الله، ومن الله، وإلى الله، وفي الله، ولله، وبالله، وهو عبد لله!!.

قلب الرباني وروحه

إنَّ صاحبَ العلم الربانيِّ يتمتعُ بقلبٍ حي، قلبٍ سليم منيب، متصلٍ بالله سبحانه وتعالى، قلبٍ مشرق بنور الإيمان، وحلاوةِ اليقين، وأُنسِ الطمأنينة.

وهو يملكُ روحاً إيمانيةً مهتدية، ونَفْساً مطمئنة، وكياناً مسلماً راغباً في الطاعة، بعيداً عن المعصية.

هذه هي «الروحيةُ الربانيةُ» الملتزمةُ بمنهاجِ الله، وهذه هي التزكيةُ الصحيحةُ المنضبطةُ بالشرع، وهذا هو الصفاءُ والنقاء، والطهرُ والعفاف، وهذه هي التربيةُ الإسلامية الناجحة.

ماذا يستفيدُ صاحب العلم إذا لم يكن قلبُه حياً، مقبلاً على

الله؟ وإذا لم تكن روحُه مشرقةً بنور الله؟ وإذا لم يكن لسانُه رطباً بذكر الله؟

إنَّ العلمَ النافعَ الذي ندعو إليه يحتاجُ إلى قلبٍ حيٍّ ليحملَه، وإلى روحٍ مشرقة لتنطلقَ به، وإلى كيانٍ صافٍ لينشره، وإذا فقدَ صاحبُ العلم هذه الروحيةَ والتزكية، فقدَ الحيويةَ العلميةَ النافعة.

وإنَّ «الربانية» هي الخطُّ البارز في الشخصيةِ العلميةِ التي تحققُ هذه الحاجةَ التربويةَ الضرورية.

٢ ـ الخط الثاني: السلفية:

السلفيةُ نسبةٌ إلى «السَّلَف». والمرادُ بالسلفِ الصحابةُ والتابعون وتابعوهم، وهم الذينَ عاشوا في القرونِ الثلاثة الأُولى، القرونِ الخيِّرةِ في هذه الأمة، التي شهدَ لها رسولُ الله ﷺ بقوله: «خيرُ الناسِ قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم..».

السلفية والقرون الخيرة الثلاثة

هذه القرونُ الثلاثةُ هي الأجيالُ الثلاثة الأُولى لهذه الأمة: جيلُ الصحابة، وجيلُ التابعين، وجيلُ أَتْباع التابعين.

والخيرُ في هذه الأجيالِ الثلاثة الأُولى، لأنَّ الإسلامَ فيها كان على صفائِه وإشراقه، بمعنى أنَّ فهمَ المسلمين لإسلامهم كان ـ في مجمله ـ ما زالَ صحيحاً صائباً، والتزامَهم به ـ في مجمله ـ

ما زالَ قوياً متيناً، ولم تكن الفرقُ الضالةُ قد تمكنت في جسم الأمة، ولا الأفكارُ المخالفة قد تغلغلتْ في عقول أبناءِ الأمة.

وقد حصلَ الغبشُ والدخنُ والتشويهُ بعد القرون الثلاثة الأولى، وغزت الأفكارُ والمبادىءُ الجاهلية مجتمعاتِ المسلمين، ولبستْ على أَبنائهم، وضعفَ الالتزامُ الأخلاقيُّ فيهم، وظهرتْ أفهامٌ خاطئة للإسلام ومبادئه، سواء في العقيدةِ أو الحكم أو السلوك أو التاريخ أو الفقه أو غير ذلك.

وصارَ هناك فرقٌ كبير بين فهمِ الإسلام والالتزام به عند القرون الثلاثة الأولى، وفهمِ الإسلام والالتزام به عند المسلمين فيما بعد، وكلَّما ابتعد الزمانُ عن أجيالِ الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، ازدادَ ضعفُ الانتماءِ والفهم للإسلام عند أَجيالِ المسلمين المتلاحقة، وأَظهرُ ما يكونُ الأمرُ وضوحاً عند الجيل المعاصر للمسلمين في هذا الزمان، فعندما نقارنُ بين فهمِ أبناء هذا الجيل للإسلام والتزامِهم به ـ في مجملهم ـ وبين فهمِ السلف الصالح للإسلام والتزامِهم به، فإننا نرى الفرقَ كبيراً بحيث لا نكادُ نجدُ أموراً مشتركةً بين الفهميْن والتطبيقيْن!!

فضل القرون الثلاثة الأولى

وقد أكدَ فضْلَ القرونِ الثلاثة الأولى. والفَرْقَ بينهم وبينَ الأجيال التالية لهم، الرسول ﷺ، وفي أكثر من حديث له.

منها ما رواه مسلمٌ عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه، عن

النبي ﷺ قال: «خيرُ الناسِ قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، فلا أدري قالَ في الثالثة أو الرابعة: ثم يتخلَّفُ من بعدهم خَلْف، تسبقُ شهادةُ أحدِهم يمينَه، ويمينُه شهادتَه.»

ومنها ما راه مسلمٌ عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ خيركم قَرني، ثم الذين يَلونهم، ثم الذين يَلونهم. قال عمران: فلا أدري أقالَ رسولُ الله ﷺ بعد قرنه مرتيْن أو ثلاثة: ثم يكون بعدهم قوم، يَشهدون ولا يُستشهدون، ويَخونون ولا يُؤتمنون، ويَنذرون ولا يوفون، ويَظهر فيهم السِّمَن».

وإذا كان هذا هو فضْلُ القرون الثلاثة الأولى، وهذه هي منزلةُ السلف الصالح، فإن الصالحينَ من بعدهم مطالَبون بالاقتداءِ بهم، والسيرِ على طريقهم، والالتزامِ بهديهم، والبقاءِ مع فهمهم الصحيحِ الصافي لدينِ الله تعالى.

السابقون الأولون والذين اتبعوهم بإحسان

السلفُ الصالحُ هم «السابقون الأولون»، والخَلَفُ الصالح هم «الذين اتبعوهم بإحسان»، وقد وردَ هذا المعنى واضحاً في قوله الله تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

إن قولَه ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ﴾ يشملُ الأجيالَ الإسلامية

المتلاحقة، التي جاءتْ بعد جيلِ الصحابة، السابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار، هذه الأجيالُ المتلاحقة تبدأُ بجيلِ التابعين، ثم جيلِ تابعي التابعين، ثم مَنْ بعدَهم، حتى نصلَ إلى الصالحين في هذا العصر.

ويؤكِّدُ هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

لقد كان الكلامُ في الآيتيْن السابقتيْن على هذه الآية عن المهاجرين وعن الأنصار، ثم تكلمتْ هذه الآيةُ عن الخَلَف الذين جاؤوا من بعد السابقين، وبينتْ حسْنَ نظرةِ الخلف الصالح للسلف الصالح، ودعوتَهم لسلفهم قائلين: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾

حسن نظرة الخلف للسلف

إنَّ أمتنَا أمةٌ حيةٌ مباركة مهتدية، يُسلِّمُ كلُّ سلفِ الأمانةَ والخلافة لمن بعدهم من الخلف، ويلتزمُ الخلفُ بمنهاج السلف، ويبقى النَّسَبُ ممتداً، وتبقى السلسلةُ متصلة، ويبقى الموكبُ المبارك من السلف والخلف سائراً في الطريقِ إلى الله.

يجبُ على الخلفِ الصالح أنْ يَقتدوا في تعاملهم مع الإسلام بسلفهم الصالح، وأنْ يَفهموا الإسلامَ منطلقين من فهمِ سلفهم

الصالح، وأنْ لا يخالفوا الأصولَ المنهجيةَ العلمية لسلفهم الصالح، طالما أنها مستمدةٌ من الكتاب والسنة.

وصاحبُ العلم أَوْلى الناس بالتعرفِ على علمِ وهديِ السلف الصالح، من أَجيال الصحابة والتابعين وأَتباعِ التابعين، والتابعين لهم بإحسان، وبعد التعرف على هديهم يَقتَدي بهم، ويستأنسُ بفهمهم، وينظرُ للإسلام وعلومه بمنظارِ هؤلاء السلف الصالح.

قواعد في أصول المنهج السلفي

وأَشيرُ إِلى قواعدَ أساسية في «أصول المنهج السلفي» الراشد، كما تجلّى في حياةِ الصحابة والتابعين وتابعي التابعين:

١ ـ الإقبالُ على القرآن: تفسيراً وفهماً وتأويلاً واستنباطاً، وإدراكُ المقاصد الأساسية للقرآن، والوقوفُ على طبيعةِ المنهج القرآني، وتلقيّ أحكامِ القرآن للتنفيذ، والعملُ على إيجاد المجتمعِ الذي ينشده القرآن.

٢ ـ استيعابُ سيرةِ رسول الله ﷺ، في كافة مجالاتها وميادينها، والوقوفُ على هديه عليه الصلاة والسلام في كلِّ جوانب الحياة، والالتزام بهديه، والاقتداءُ به.

٣ ـ فهمُ سنةِ رسول الله ﷺ، المتمثلةِ في الحديث الصحيح، وضمُّ هذه السنة إلى القرآن، وإِدراكُها من خلاله، واعتمادُها معه لفهم الإسلام واستنباطِ أحكامه وتشريعاته.

٤ ـ الوقوفُ على حياة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم التي عاشوها بالقرآن والسنة، وسَعدوا فيها سعادةً هانئة، والالتزامُ بهديهم في ذلك.

٥ ـ رفضُ أيِّ مبدأ أو فهمٍ غريبٍ دخيل يتعارضُ مع القرآن والسنة وفهمِ سلف الأمة، مهما كان أصحابُه.

٦ ـ اعتمادُ الكتاب والسنة ميزاناً وحَكَماً، وإحالةُ أيِّ فكرة أو قول إلى هذا الميزان، وقَبولُ ما وافقه. ومحاكمةُ قولِ أيِّ قائل إليه، ومعرفةُ الرجال بالحق، وقبولُ آرائهم الموافقةِ للحق، ورفضُ آرائهم المخالفةِ للحق!!.

٧ ـ جمعُ الأمة على الكتابِ والسنة وفهمِ سلف الأمة، والوقوفُ أمام الآراءِ والأفكارِ الغازية الدخيلة، وتربيةُ الأمة على الحق، وإعدادُها للجهاد في سبيل الله، ومواجهةِ أعداء الله.

وصاحبُ العلمِ هو الذي يلتزمُ بهذه القاعدة الأساسية وغيرها، وينضبطُ انضباطاً على هدي السلف الصالح.

المعنى الشامل للسلفية

هذه هي «السلفيةُ» التي نريدُها، ونرى أنها خطٌّ متين راسخٌ في شخصية صاحبِ العلم، تشدُّه إلى سلفهِ الصالح، المتمثلين في الصحابة والتابعين وتابعيهم.

ولا نعني بالسلفية المعنى الضيقَ الذي غلبَ عليها في هذا

العصر، حيثُ يقصرُها بعضُهم على جماعةٍ معينة، أو أَتباعِ شيخٍ خاصّ، أو السائرين مع تنظيمٍ محدد.

كما أننا لا نَعني بالسلفية حصرَها في مجموعةٍ من المسائل الفرعية في بعضِ العلوم الإسلامية كالعقيدة أو العبادة أو الحديث أو التاريخ.

إنَّ «السلفيةَ» أوسعُ وأشملُ من هذا، إنها تيارٌ كبيرٌ يسري في جسم الأمة، ويلتزمُ به كلُّ صالحٍ ملتزم بفهمِ سلف الأمة، وليست السلفيةُ «تنظيماً» ضيقاً محدوداً، يشملُ مجموعاتٍ صغيرةً من جسم الأمة الكبير.

كما أنَّ السلفيةَ شاملةٌ تشمل الإسلام كلَّه، بكافة جوانبه وميادينه ومجالاته، إنَّ السلفيةَ في العقيدة، وفي العبادة، وفي الاقتصاد، وفي الأخلاق، وفي السياسة، وفي الاجتماع، وفي السلم، وفي الحرب، وفي الإدارة. وإنَّ السلفيةَ في الفقه، وفي الحديث، وفي التفسير، وفي الذكر، وفي التاريخ، وفي التزكية، وفي الدعوة، وفي الجهاد..

إنَّ السلفيةَ منهجٌ راشد، وتفكيرٌ موضوعي، وانضباطٌ بقواعد وأصول، واقتداءٌ في السلوك والفهم والحياة، وهي تُظللُ حياةَ صاحب العلم، في كافةِ جوانبها وميادينها.

وهذه «السلفيةُ المهتديةُ البصيرة» مُلْزِمَةٌ لصاحبِ العلم إلزاماً. ويجبُ عليه أنْ يلتزمَ بها، وأنْ لا يخرجَ عنها، وأنْ يرفضَ كلَّ مَنْ

خالفها، وهي ليستْ تطوعاً ولا نافلةً في حقه، بل هي فرضٌ عينيٌّ يجبُ عليه القيام به!!

٣ ـ الخط الثالث: الحركية:

الحركيةُ هي الخطُّ الثالثُ الذي يتعمقُ في شخصية صاحب العلم، ويتناسقُ مع الخطّين السابقيْن: الربانية، والسلفية، ويلتقي معهما لتكوينِ الشخصية الإسلامية المتكاملة.

وإذا كانت الربانيةُ منسوبةً إلى الرب، والسلفيةُ منسوبةً إلى السلف الصالح، فإنَّ الحركيةَ منسوبةٌ إلى الحركةِ والنشاطِ والدعوة.

ما هي الحركية المطلوبة؟

ونعني بالحركيةِ بذلَ الجهدِ لخدمة هذا الدين، والدعوةِ إليه، ونشرِ علومه، والاهتمامِ بالمسلمين، والعملِ على تربيتهم وتوجيههم، والنهوضِ بمستواهم الإيماني والأخلاقي والعبادي والعلمي.

نعني بالحركيةِ بذلَ الجهد في النصيحةِ والتذكير، والعلمِ والتعليم، والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر.

نعني بالحركيةِ إسعادَ المسلمين بعدَ إسعاد النفس، وإنقاذَهم بعد إنقاذِ النفس، وتحصينَهم من الشيطان، وأَخْذَهم إلى طريق الرحمن.

نعني بالحركيةِ الوقوفَ أمامَ الظالمين والطواغيت، وإنكارَ ظلمهم وبغيهم، وإنقاذَ المستضعفين منهم، والوقوفَ أمامَ الشيطان وحزبه وجنوده، حتى لا يُفسدوا حياةَ المسلمين.

نعني بالحركيةِ إيجادَ المجتمع الإسلامي الذي تدعو إليه «السلفية»، وإيجادَ أمةِ الخلافة الراشدة التي تهدفُ إليها السلفية، ونشرَ أنوارِ الكتاب والسنة في العالمين، ودعوةَ الناس جميعاً إلى هذا الدين.

نعني بالحركيةِ بذلَ أقصى الجهدِ في الجهاد في سبيل الله، والوقوفَ أمامَ أعداء الله، والتصدي لمكائد هؤلاء الأعداء، وتحدّيهم، وتفنيدَ شبهاتهم، وصدَّ جيوش غزوهم، وتحصينَ الأمة أمامهم.

نعني بالحركيةِ توحيدَ الأمة على المنهاج السلفي الراشد، وتجميعَهم على الكتاب والسنة، وتحريرَ أوطانهم من النفوذ الأجنبي الكافر، وتخليصَ مواردِهم من النهبِ الشيطاني الكافر، وإيجادَ نظام الحكم الإسلامي العادل، وتنصيبَ الخليفةِ المسلم الراشد، الذي يحققُ كلَّ ذلك، ومساعدتَه وطاعتَه، والانضمامَ تحت رايته لخدمة أمته.

وهذه «الحركيةُ» الدعويةُ ليستْ بدعةً ولا نشازاً في الأمة، ولكنها واضحةٌ في سيرة رسول الله ﷺ، وحياةِ أصحابه، فسيرتُه سيرةُ نبيٍّ رسولٍ مجاهد عليه الصلاة والسلام، وحياتُه كلُّها دعوةٌ وحركة،

والصحابةُ الكرام كانوا متحركين عمليين مجاهدين نشطين.

المجال الواسع الشامل للحركية

وكما قلنا في المفهومِ الواسعِ للسلفية، ورفضْنا حصْرَها في مسائل أو تنظيم، نقول في الحَركية، فلا نحصرُها في تنظيمٍ إسلامي، أو حزبٍ إسلامي، أو جماعةٍ إسلامية، أو حركة إسلامية.

إنَّ «الحركيةَ الإسلامية» تشملُ كلَّ تنظيمٍ أو حزب أو جماعة أو حركة، طالما أنَّ منهاجَها مستمدٌّ من الكتابِ والسنة وفهمِ سلف الأمة، وأنَّ أعضاءَها يتحركون في عالم الدعوة والتربية والحركة والجهاد.

كما تشملُ «الحركيْةُ الإسلامية» كلَّ داعيةٍ مصلح، حمل هم المسلمين، وقامَ بواجبِ الدعوة إلى الله، وطبقَ آفاقَ وميادين الحركية السابقة، ولو لم ينضمَّ إلى جماعةٍ معينة!!

هذه الحركيةُ باعثٌ وموجهٌ ومحركٌ لنشاطِ صاحب العلم، ومستمرةٌ معه حتى يلقى ربَّه، وكلما ازدادَ صاحبُ العلم عمراً، ازدادَ حركةً ودعوةً وجهداً!!

التكامل المتوازن للخطوط الثلاثة

إن هذه الخطوط الثلاثة متكاملة في كيان صاحب العلم: الربانية، والسلفية والحركية.

هي ثلاثيةٌ متوازنة، ولا بدَّ من اجتماعِها وتناسقها، ولا يجوزُ إلغاءُ خطٍّ واحدٍ منها، إنَّ إلغاءَ أَو إغفالَ أيِّ واحدٍ منها، معناه تشوُّهٌ في شخصيةِ صاحب العلم، وعدمُ التزامٍ بالإسلام كما أرادَ الله.

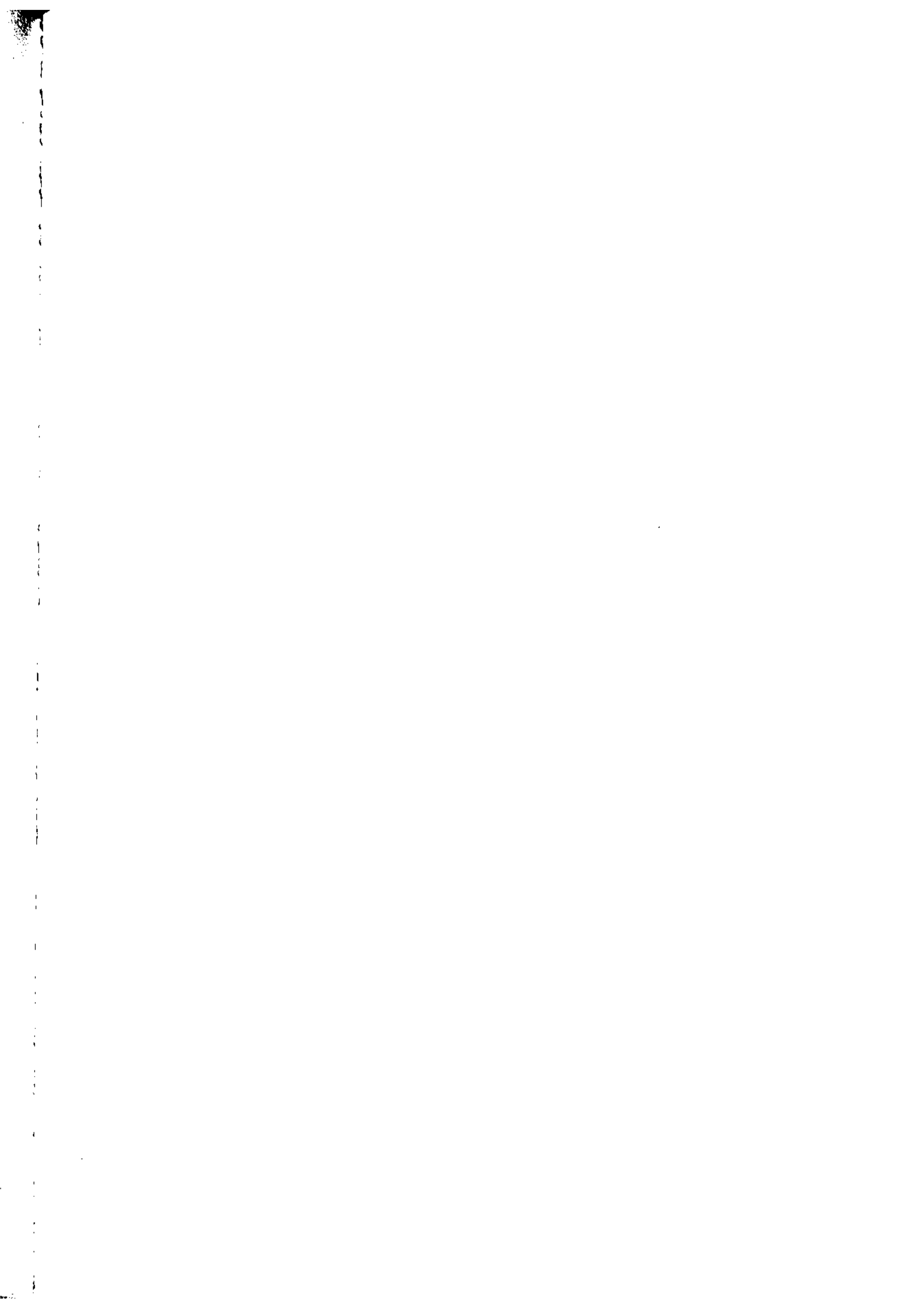
لو كانَ صاحبُ العلم ربانياً فقط، بدونِ سلفيةٍ ولا حركية، فسيتحول إلى «صوفيةٍ منعزلة» يهتمُّ بالأذكارِ والأوراد، داخلَ غرفته أو صومعته، ويهتمُّ بروحِه وقلبه، ويُغالي في ذلك، لكنَّ شخصيتَه فاقدةٌ لثلثيْها، فأينَ التزامُه بالكتاب والسنة؟ وأينَ جهدُه لخدمةِ هذه الأمة؟

ولو كان صاحبُ العلم سلفياً فقط، وأهملَ روحَه وقلبه، وغفلَ عن خدمةِ الأمة ومواجهةِ أعدائها، فسيبقى مع مسائلِه العلميةِ السلفية، ويفقدُ ثُلُثيْ شخصيتِه.

ولو كان صاحبُ العلم حركياً فقط، وأهملَ روحَه، وأضعفَ ربانيتَه، وفقدَ سلفيتَه، فسيتحولُ إلى مجردِ حزبيٍّ أو سياسيٍّ أو تنظيمي أو إداري، ويضيعُ ثُلُثَيْ شخصيته.

الربانيةُ تعني الاتصالَ بالله، والسلفيةُ تعني الالتزامَ بالمنهج الراشد، والحركيةُ تعني بذلَ الجهد لخدمة المسلمين، والتكاملُ المتوازنُ مطلوبٌ بين هذه الخطوطِ الثلاثة!

* * *



النفس التواقة ذات الآمال البراقة

خلقَ اللهُ الإنسانَ، وجعلَهُ خليفةً في الأرض، وزودَه بالوسائلِ النفسية والماديةِ والعملية التي تُعينُه على تحقيقِ الخلافة.

ومن جملةِ ما زودَّه به ما فطرَهُ عليه من الفطرةِ الصحيحة، وما أَنشأَ عليه نفسَه وفكرَه وعقلَه وكيانه.

ونشيرُ إلى ما فطرهُ عليه مما يتعلق بهذا الموضوع: النفسُ التواقة.

الإنسان همام تواق

لقد خلقَ اللهُ الإنسانَ هَمّاماً، صاحبَ همةٍ عالية، وإرادةٍ قوية، وآمالٍ وتطلعاتٍ متجددة، ونفسٍ تواقة، تنظرُ دائماً إلى الأمام، وتتطلعُ إلى ما هو أعلى، وكلَّما حققتْ هدفاً تاقَتْ إلى هدفٍ آخر، وكلَّما قطعتْ مرحلةً تاقتْ إلى المرحلةِ التي بعدها، واستعدَّتْ لقطعِها والوصولِ إلى محطةٍ جديدة.

والإسلامُ بتوجيهاته يُقوّي هذه الخاصيةَ في المسلم «النفس التواقة»، ويربطُ نظرَ المسلم إلى ما هو أَسمى وأَعلى، وأَدومُ وأَبقى، وهو الجنةُ ونعيمُها، ويَرتقي به الإسلام، ويرتفعُ بهمتِه وعزيمتِه وإرادته، ويثيرُ معاني الحماسِ والثباتِ والتحدي

والمواجهةِ في كيانه، ليسارعَ انطلاقَه، ويقطعَ مراحلَه، ويقضيَ على المعوقاتِ والعقبات التي تُواجهه.

وصاحبُ العلم أكثرُ المسلمين إدراكاً لهذه المعاني والحقائق، وتفاعلاً معها، وانطلاقاً بها.

صاحبُ العلم أكثرُ المسلمين تَوْقاً وتطلُّعاً إلى ما هو أَفضلُ وأَسمى وأَعلى، نفسُه توّاقة، وهمتُه عالية، وإرادتُه حازمة، وشخصيتُه جازمة، وخطتُه محددة، وهدفُه واضح، وتصميمُه نافذ، وأَملُه محقَّق.

الهدف الواضح

هدفُ صاحبِ العلم من حياته واضحٌ لديه، ليس غائماً ولا ملتبساً بغيره، وقد عرفَ هدفَه من إسلامه.

مَنَّ اللهُ علينا بأنْ ذكَرَ لنا هدفَنا، الذي لا بدَّ أنْ نجعلَه أمامَنا، ونَغُذَّ الخُطى إليه، ونحرصَ على تحقيقِه، وذلك حتى لا نُخطىء أو نختلفَ في تحديدِ ذلك الهدف.

هدف المسلم هو نيل رضوان الله

هدفُ المسلمِ الصالح، وصاحبُ العلم الموفَّقِ الناجح يأخذُه من هذه الآيةِ القرآنية الصريحة الواضحة:

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ

﴿أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

تخبرُ الآيةُ أنَّ الله أعدَّ للمؤمنين والمؤمنات جنات، تَجري من تحتها الأنهار، وأنهم خالدون في تلك الجنات، يتمتعونَ بنعيمِها وخيراتِها ويُقيمون في مساكنها وقصورها.

ويُكرمهم اللهُ بما هو أعظمُ وأكبرُ من الجناتِ ونعيمها وخيراتِها ومساكنها، إنه الرضوانُ منه سبحانه وتعالى عليهم: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

ومَنْ فازَ بالرضوان من اللهِ فقد فاز، ولم يَفُتْه شيءٌ من حياتِه، ومَنْ نالَ الرضوان فقد حَقَّقَ هدفَه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

ويوضحُ هذه الحقيقةَ ما رواه مسلمٌ عن أَبي سعيد الخدري رضيَ اللهُ عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ اللهَ يقولُ لأهل الجنة: يا أهلَ الجنة: فيقولون: لبيك ربَّنا وسعديك، والخيرُ في يديك. فيقول: هل رَضيتُم؟ فيقولون: وما لنا لا نَرضى يا رب؟ وقد أعطيتَنا ما لم تُعطِ أَحداً من خلقك. فيقول: ألا أُعطيكم أَفضلَ من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأيُّ شيء أَفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أَسخطُ عليكم بعده أبداً».

وماذا يُريدُ صاحبُ العلم أكثرَ من هذا؟ ألا يريدُ دخولَ الجنة والتمتعَ والتنعمَ بنعيمها؟ والخلودَ فيها؟ ونيلَ رضوانِ الله فيها؟ وسماعَ قولِ الله له ولإخوانه: أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أَسخطُ عليكم بعده أبداً!!.

هذا إذنْ هو الهدفُ الواضحُ المحددُ لصاحب العلم: أَنْ ينالَ رضوانَ الله، بأنْ ينجوَ من عذابِ النار، ويَدخلَ الجنة، وينعمَ بنعيمها، ويحظى بالنظرِ إلى وجْهِ ربه الكريم فيها.

هدفُه أنْ يقولَ له اللهُ يومَ القيامة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

والوسيلة المحددة:

بعدَ أنْ يعرفَ صاحبُ العلم هدفَه الواضح، يتعرفُ على وسيلتِه المحددة لتحقيقِ ذلك الهدف، وذلك ليلتزمَ بها ويُؤدّيها.

وكما مَنَّ اللهُ عليه بالنصِّ على هدفِه حتى لا يُخطىءَ في معرفته، مَنَّ عليه بتحديدِ وسيلتِه للوصولِ إليه، حتى لا يَتيهَ في حياته، ولا يَضِلَّ في طريقه، ولا تلتبسَ به السُّبُل، أَو تعمى عليه الحقائق.

وسيلته هي العبادة لله

الوسيلةُ المحددةُ لذلك هي: العبادةُ الحقةُ لله سبحانه وتعالى، العبادةُ التي خلقَ اللهُ الناسَ لها، وجعلَها وظيفةً دائمةً لهم.

هذه الوسيلةُ يأخذُها صاحبُ العلم من قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

العبادةُ الحقةُ لله، هي الطلبُ الذي اتفقَ جميعُ الرسل عليهم الصلاةُ والسلامُ على طلبه من أقوامهم:

﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾

[الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥. وسورة هود: ٥٠، ٦١، ٨٤].

قالَها نوحٌ عليه السلام لقومه، وقالَها هودٌ عليه السلام لقومه، وقالَها صالحٌ عليه السلام لقومه، وقالَها شعيبٌ عليه السلام لقومه.

وقالَها كلُّ رسول لقومه، كما وردَ في قول الله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ . . . ﴾

[النحل: ٣٦].

وصاحبُ العلم يعبدُ اللهَ بإحسان كما علَّمه رسولُ الله ﷺ، حيث روى مسلمٌ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في سؤال جبريل عليه السلام للرسول ﷺ عن الإحسان، فأجابه قائلاً: «الإحسانُ أنْ تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

والإحسانُ في العبادة مقامٌ عظيمٌ للعابدين المحسنين، به يُحسنونَ الشعورَ بمعيةِ الله ورقابته، وبه تستقيمُ حياتُهم على منهاجِ الله.

وصاحبُ العلم العابدُ المحسنُ يحققُ في حياته عملياً قولَ الله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

وظيفةُ المسلم المحددةُ في حياته هي العبادةُ لله، وهو يعبدُ اللهَ مخلصاً له الدين، ويعبدُه من خلال ما شرعَ اللهُ له، متبعاً الكتابَ والسنة، يحققُ في هذا قولَ الله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

والقاعدةُ العقيديةُ أنه: لا يُعْبَدُ إلاّ الله، وفقَ ما شرعَ الله، عبادةً مخلصةً لله.

شمول العبادة لحياته كلها

ويَعلمُ صاحبُ العلم أنَّ العبادةَ عامةٌ شاملة، تشملُ حياتَه كلَّها، في كافةِ مجالاتها وجوانبها وأَنه يمكنُ أنْ يكونَ عابداً لله، لمدةِ أربعٍ وعشرين ساعة يومياً، لأنه يتوجَّهُ بكلِّ أعماله وأَقوالِه لله، ويلتزمُ فيها بمنهاجِ الله، وهذه هي روحُ العبادة.

صاحبُ العلم عابدٌ لله في شعائره التعبدية، وفي حياتِه العملية، عابدٌ لله في طعامِه وشرابه، ونومِه ويقظته، وكلامِه وسكوته، وحركتِه وجلوسه، عابدٌ لله في بيته، وفي وظيفتِه، وفي زياراتِه، وفي ارتباطاتِه.

هذه هي وظيفةُ صاحب العلم المحددة، ووسيلتُه الواضحةُ التي توصلُه إلى هدفِه السامي النهائي، بل هي الوسيلةُ الوحيدة، التي لا وسيلةَ غيرها.

وهو يبقى ملازماً للعبادة، قائماً بالوظيفة، منفِّذاً للوسيلة،

طيلةَ عمره، حتى يلقى الله، وتخرجَ روحه من جسده، وهذا هو صريحُ قول الله: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٨ ـ ٩٩].

ما أَجملَ حياةَ صاحبِ العلم عندما يجعلُها كلَّها عبادةً لله ـ بمفهومِ العبادة الشامل ـ وما أَسعدَ صاحبَ العلم، عندما يجعلُ كلَّ عمرِه لله، وكلَّما تقدمَ به العمر، كلما ازدادَ تحقُّقاً بالعبادة، وأُنساً وسعادةً بها، وما أَعظمَ أجْرَه عند ربه عندما يُثيبه على عبادته.

ومتى نظرَ صاحبُ العلم إلى حياتِه بمنظارِ العبادة، ولوَّنَها بلون العبادة، يَزولُ من حياته القلقُ والضيقُ والضياعُ والتوترُ والكسلُ والملل.

النفس التواقة:

بعد تحديدِنا للهدفِ والوسيلة ننتقل إلى «النفسِ التواقة» لصاحبِ العلم، لنعرفَ كيف يتوقُ إلى ما هو أَسمى وأَعلى، وكيفَ يقطعُ المراحلَ والمحطات وهو يرتقي إلى الآفاقِ العالية، وكيفَ ينهضُ بهمتِه وعزيمتِه وإرادته، ليكونَ من السابقين المقربين عندَ ربِّ العالمين.

عمر بن عبد العزيز إمام الزاهدين

وأَوضحُ نموذجٍ لذي النفس التواقة هو إمامُ الزاهدين بعدَ الصحابة الكرام عليهم الرضوان، الخليفةُ الراشدُ عمرُ بنُ عبد العزيز رضي الله عنه.

هو إِمامُ الزاهدين كما قالَ الزاهدُ العابدُ الحسنُ البصري رحمه الله، فقد قيل له: يا أَبا سعيد: أنتَ أزهدُ الناس!

فقال الحسنُ البصري: لستُ أَزهدَ الناس، ولكنهُ عمرُ بن عبد العزيز! فقيل له: لماذا؟

فقال: لأنه زهدَ في الدنيا بعدما تمكَّنَ منها، وقدرَ عليها، إنه أَميرُ المؤمنين، والدنيا كلُّها بين يديه، ولو أَرادَ أنْ يأخذَ منها ما يشاء لأخذَ، لكنه استعلى عليها بعدَ القدرةِ عليها، وزهدَ فيها بعد الوصولِ إِليها، فهو إِمامُ الزاهدين!

وقد زهدَ ابنُ عبد العزيز في الدنيا بعدَ القدرةِ عليها لأن له نَفْساً تواقة، كلَّما حققتْ مرحلةً تطلعتْ إِلى ما بعدها، وكلَّما قطعت شوطاً سارتْ إِلى ما بعده، وكلَّما حصَلتْ على ما تريد تاقَتْ إلى ما هو أَسمى منه.

ابن عبد العزيز بين الولاية والخلافة

كانَ عمرُ بن عبد العزيز والياً على المدينة، من قِبَلِ الخليفةِ سليمان بن عبد الملك، ثم صارَ مستشارًا خاصّاً لسليمان، وبعد وفاتِه صار ابنُ عبد العزيز خليفةً من بعده.

إنَّ ابنَ عبد العزيز عابدٌ صالحٌ طيلةَ عمره، حتى في أَيام ولايته على المدينة، لكنه كان مُنَعَّماً مترفاً، مُكْثِراً من المباحِ الحلال، راغباً في المتعِ والطيبات التي أَباحَها الله، ولما صارَ

خليفةً زهدَ في المباحات والطيبات، وتركَها وتخلّى عنها، ليس تحريماً لها، لكنَّ نفَسه تاقَتْ إلى ما هو أَفضلُ منها!

ويحدِّثُنا عن هذا «التَّوْقِ» الرائع عندَ عمر بن عبد العزيز وزيرُه الصادق الصالحُ رَجاءُ بنُ حيوة رحمه الله. حيث كان رجاءُ ابنُ حيوة مع ابنِ عبد العزيز لما كان والياً على المدينة، وهو مُقبلٌ على المباحاتِ الطيبات، وكان معَ ابن عبد العزيز لما صارَ خليفة، وزهدَ في الطيبات، توّاقاً إلى ما هو أَفضلُ منها.

رجاء بن حيوة وثوبان لعمر

قالَ رجاءُ بنُ حيوة: لما كان عمرُ بن عبد العزيز والياً على المدينة، قال لي: يا رجاء؛ اذهبْ واشترِ لي ثوباً.

فاشتريتُ له ثوباً جيِّداً، ثمنُه خمسمائة درهم.

ولما أَتيتُه به، ولمسه بيده، قال: هو جيد، لولا أَنَّه رخيصُ الثمن!

قال رجاء: وبعدَ سنوات صارَ عمرُ أَميراً للمؤمنين، فقال لي يوماً: يا رجاء: اذهبْ واشترِ لي ثوباً.

فاشتريتُ له ثوباً رخيصاً متواضعاً، ثمنُه خمسةُ دراهم!

ولما أَتيتُه به، ولمسه بيده، فاجأني بقوله: هو جيد، لولا أنهُ غالي الثمن!

فتعجبت كيفَ يكونُ الثوبُ الذي اشتريتُه له في المدينة قبلَ

سنواتٍ بخمسمائة درهم رخيصَ الثمن، ويكونُ الثوبُ الذي اشتريتُه الآن بخمسة دراهم غاليَ الثمن؟ كيف؟

قال رجاء: تأثَّرتُ من كلام عمر فبكيت.

فقال لي عمر: يا رجاء: ما يُبكيك؟

قلتُ له: موقفك وكلامك يا أَميرَ المؤمنين، فكيف اعتبرتَ الثوبَ السابقَ ذا الخمسمائة درهم رخيصاً، واعتبرتَ الثوبَ الحالي ذا الخمسة دراهم غالياً؟

ابن عبد العزيز ذو النفس التواقة

قال: يا رجاء: إنَّ لي نفساً توّاقة، كلَّما حقَّقْتُ شيئاً تاقَتْ إلى ما بعده.

يا رجاء: تاقَتْ نفسي إلى ابنةِ عمي فاطمة بنت عبد الملك فتزوجْتُها، ثم تاقَتْ نفسي إلى الإمارة فَوُلِّيتها، ثم تاقَتْ نفسي إلى الخلافة فنِلْتُها. والآن تاقَتْ نفسي إلى الجنة، وأَرجو أنْ أكونَ من أهلها!!.

هاهو عمرُ بن عبد العزبز ذو النفسِ التواقة رضي الله عنه، كان يضعُ لنفسه محطاتٍ مقصودةً مطلوبة، وكلَّما وصلَ إلى محطة، تاقَتْ نفسُه إلى ما بعدها، فشدَّ الرحالَ وَغذَّ الخُطى إليها؛ بدأَ بالزواجِ من ابنة عمه، ثم انتقلَ إلى الإمارة، ثم إلى الخلافة، وليسَ هناك في الدنيا ما هو أَعلى من الخلافة، ولذلك تاقَتْ نفسُه

إلى الجنة، ورجا أَنْ ينالَها وأنْ يكونَ من أهلها.

صاحب العلم ذو نفس تواقة

لا يجوزُ لصاحب العلم أَنْ يَرضىٰ بما هو عليه، وأنْ يكتفيَ بما حصَّله وناله، ولا أنْ تقعدَ به همتُه عن طلب المعالي، ولا أنْ تضعفَ إرادتُه عن تحقيقِ أَسمى المقاصد.

صاحبُ العلم يحصلُ كلَّ يوم على المزيدِ والجديد والمفيد من العلم، والمزيدِ من السلوك والتربية، والمزيدِ من الأجر والفضل والمنزلة، ويقطعُ كلَّ يوم مزيداً من أَشواطِ الطريق القاصد الطويل، ويجتازُ كلَّ فترةٍ بمزيد من المحطاتِ التي تمنّاها وتاقَتْ نفسُه إليها.

لا يعرفُ صاحبُ العلم القعودَ أو الكسل، ولا التوقفَ عن العمل، إنه دائمُ السير والتقدم إلى الأمام، لا يتراجعُ إلى الخلف، ولا ينتكسُ أو يرتد، آمالُه البراقة أمامَه، تَحثُّه ليسرعَ إليها، فتتوقُ نفسُه إليها، ويَرضى بحسنِ السير القاصد ليصلَها.

ما يحتاجه ذو النفس التواقة

وبما أنَّ ذا النفس التواقة حددَ هدفه، وتعرفَ على وسيلته لتحقيقه، فإنه يبرمجُ وقْتَه وعمره، ويخططُ حياتَه ودنياه، ويضعُ له أهدافاً مرحليةً جزئيةً متدرجة، ويحددُ الوسائلَ إلى تحقيقِ كلِّ هدفٍ منها، وكلَّما حققَ هدفاً تاقَتْ نفسه إلى ما بعده، وتناديه

آمالُه البراقةُ من بعيد، وتَدعوه ليرتفعَ ويحلقَ في سماءِ الفضل والعلياء، ويقطعَ المسافاتِ المرحلية المتدرجة صاعداً إلى الأعلى والأسمى، حتى يلقى الله، وينعمَ بما عنده من النعيم المقيم والرضوان العظيم!!

وحتى يقطعَ صاحبُ العلم رحلةَ حياتِه الدنيا، بنفسِه التواقة إلى أَهدافه وآماله البراقة، فإنه يحتاجُ إلى همةٍ عظيمة، وعزيمةٍ قوية، وإرادةٍ جازمة، وشخصيةٍ حازمة، ومجاهدةٍ عالية، واستعلاءٍ على الضعف والكسل، وتغلبٍ على العوائق والمثبطات، وزادٍ عظيم لضمانِ السير الصاعد إلى العلياء.

وهو في كلٍّ ذلك يقبلُ على الله، ويطلبُ منه المددَ والزاد والفضلَ والتوفيق، والعونَ والسداد، فيمنُّ اللهُ عليه بما يريد، ويمنحهُ منه المزيد!!.

* * *

التخطيط والبرمجة وترتيب الأولويـات

تحدَّثنا في المبحثِ السابق عن معرفةِ صاحب العلم لهدفه، ومعرفتِه لوسيلته، ونفسِه التوّاقة ذات الآمال البرّاقة، والسير المتجدد، للوصولِ إلى ذلك الهدف. ونتحدثُ الآن عن «التخطيطِ والبرمجة والتنفيذ» ليخططَ صاحبُ العلم وقْتَه، ويبرمجَ حياتَه، وينفذَ خطته ويحققَ هدفَه.

ولا يجوزُ لصاحبِ العلم أنْ يعيش هكذا، في غفلة وسذاجة، كما يعيشُ باقي الناس العاديين.

مسلمون غافلون عابثون لاهون

فمعظمُ المسلمين العاديين يعيشون أَيامهم وشهورهم، ويُمضون سنواتِهم وأَعمارهم، هكذا كما تيسّر، تمرُّ بهم السنةُ تلو السنة، وهم في غفلةٍ وسذاجة، وخِفَّة وبلاهة، يتحركونَ حركةً روتينية، أَسَرَهم العرف، واستعبدَتْهم العادة، وخَضعوا للمألوف، وتحكمتْ فيهم الرتابة.

تعوَّدوا أنْ يعيشوا حياتَهم اليوميةَ الرتيبة الروتينية، فيأكلون ويشربون، وينامون ويستيقظون، ويشتغلون ويستريحون،

ويزورون ويتحركون، لا يلفتُ نظرَهم مرورُ الساعات وانقضاءُ الأيام والشهورِ والأعوام، كان أحَدُهم طفلاً ساذجاً، ثم صارَ شاباً غافلاً، وبعد ذلك أصبحَ عجوزاً هرماً، ثم ماتَ وغادرَ الحياة كما دخلَها، وعندما تنظرُ في السنواتِ السبعين أو الثمانين التي عاشها، لا تجدُ فيها شيئاً يستحقُّ الذكر.

أَمضى المسكينُ سنواتِ عمره في جمعِ الأموال والممتلكات، وإنجابِ الأولادِ والبنات، وتأمينِ مستقبلهم بالوظائف والشهادات والعمارات، وهو في ساعاتِ يومِه ونهاره مشغولٌ بوظيفته، أو زياراته، أو أحاديثِه وجلساتِه، أو ساعاتِ لهوه ولعبه، وهو في غفلةٍ وسذاجة وبلاهة.

لا يفكر، ولا يَتعلَّم، ولا يُعلِّم، ولا يشعرُ بانقضاء سنواتِه سدى، ولا يدخرُ شيئاً من الطاعات عند ربه، ليجدَه يوم يلقاه، وإذا ادَّخر شيئاً من ذلك تجدُه ركعاتٍ معدودات، فارغاتٍ من الروح والمضمون، أَو صيامَ أيامٍ لا يحقق غايته، أو ذكراً باللسان لا يُشرِكُ معه القلب والكيان.

معظمُ المسلمين يعيشُ سنواتِ عمره بهذه الغفلةِ والسذاجة والبلاهة!!

صاحب العلم مدرك لقيمة وقته

وصاحبُ العلم الذي عرفَ هدفَه ووسيلتَه، وملكَ نفساً تواقة، وروحاً مستبصرة، وبرقَتْ له الآمالُ العظيمة، ونادَتْه

الأفكارُ الجليلة، لا يرضىٰ أنْ يعيشَ حياتَه كباقي المسلمين الغافلين، ولا أنْ تسيرَ أيامُه وسنواتهُ سيراً روتينياً آلياً رتيباً مُمِلاًّ، ولا أنْ يبقى أَسيرَ الأعراف والمألوفات، ولا أنْ تضيعَ سنواتُ عمره في الغفلةِ والأوهام، واللهوِ والعبث واللعب.

صاحبُ العلم يعرفُ قيمةَ وقتِه وسنواتِ عمره ولحظاتِ حياته، ويعلمُ أنَّ الساعةَ التي ذهبتْ لن تعود، وأنَّ السنةَ التي انقضّتْ لا ترجِع، وأنه لا يرجعُ إلى المراحلِ التي قطعها وتركَها خلفه، وأنَّ أَجلَه قد يأتيه في أَقرب لحظة.

ولهذا تجدُه مهتمّاً بوقته، وحريصاً على الاستفادةِ من أيامه وسنواته، واستغلالِ ساعاته ولحظاته، ملأَ حياتَه بالأمورِ العظيمة، وتقديمِ الأهم على المهم، وشِعارُه: «الواجباتُ أكثرُ من الأوقات». وشعارُه الآخر: «الدنيا ساعة، فاجعَلْها طاعة».

إنَّ تخطيطَ صاحبِ العلم لوقته ضرورة، وإنَّ برمجتَه لعمره وحياتِه واجبة، وإنه لا بدَّ أنْ يسيرَ على خطةٍ دقيقة، ويلتزمَ ببرنامجٍ جادّ، يتمكنُ فيه من أداءِ الواجبات، ويُحَصِّل فيه أكبرَ قدرٍ من العلم.

كيف يخططُ صاحبُ العلم وقتَه؟ وكيف يبرمجُ حياته؟ وكيف يرتبُ أولوياتِه؟ وكيف ينفذُ خطتَه؟ وكيف يتغلبُ على المعوقات والعقبات؟

جلسات المصارحة والمحاسبة

يجلسُ صاحبُ العلم مع نفسه «جلسةً خلوية» صافيةً هادئة، في لحظةٍ من لحظاتِ الإشراقِ النوراني والصدقِ القلبي والصفاءِ الروحي، في وقْتٍ من أَوقاتِ الهدوءِ والسكينة.

والأَوْلى أنْ تكونَ هذه الجلسة وقتَ السَّحَر، قبلَ صلاة الفجر، يسبقُها صلاةُ تهجُّدٍ مع تضرعٍ ودعاءٍ وإقبالٍ على الله، واتصالٍ بالله، أو تكونَ بعد صلاةِ الفجر، عند شروقِ الشمس، وتنفُّسِ الصبح، واستيقاظِ القلوب والأرواح.

قبلَ حديثِ صاحب العلم مع نفسه، يُقبلُ على ربه، فيذكُرَه ويسبِّحَه ويحمدَه ويُكَبِّرَه، ويستغفرَ الله استغفاراً صادقاً، ثم يخلّي نفسَه من الشواغلِ والهمومِ الدنيوية، سواء كانت شخصيةً أو عائليةً أو اجتماعية، ويقبلُ على نفسه، ويستعرضُ شريطَ حياته، ليعرفَ أينَ أصابَ وأين أخطأ.

أكثر من جلسة للمحاسبة

يحاسبُ نفسَه في هذه الجلسة محاسبةً دقيقة، ويتعرفُ على أمراضها، وعلى حاجاتها، وعلى أشواقِها وتطلعاتها، ويتعرفُ على الطريق التي يسلكها ليسموَ بنفسه، ويحققَ آمالَه، وعلى المعوقاتِ التي تعطلُ سيْرَه.

وقد يحتاجُ صاحبُ العلم إلى أكثرَ من جلسةٍ، ليعرفَ ما لَه

وما عليه، ويخرجَ من تلك الجلساتِ المحاسَبية الصادقة بقرارٍ حازم، هو إِصلاحُ أخطائِه، واستكمالُ حاجاته، والاستعلاءُ على مظاهر ضعفه، والتخلّي عن عيوبه، والثورةُ على غفلته وكسلِه ولعبه، والعزمُ على السير في طريق العلماء والمصلحين الربانيين.

اجتمـاع مجموعات في هذه الجلسات

وحبَّذا لو التقى أَفرادٌ صادقون من أَصحابِ العلم على هذه الأفكار، واتفقوا على التناصح، وآمَنوا بوجوبِ الإصلاح والتغيير، تغييرِ ما بأنفسهم، والسيرِ القاصد في طريقِ الرجالِ الأبرار.

إِننا ننصحُ أن تتكونَ مجموعاتٌ من أصحابِ العلم، كلُّ مجموعة تضمُّ أَفراداً صالحين متآلفين متجانسين، وأَنْ تلتقيَ كلُّ مجموعةٍ منها في جلساتِ المصارحة والمحاسبة والمناصحة والمذاكرة، وأنْ يتفقوا فيما بينهم على الارتقاءِ بمستواهم الإيماني والعلمي والأخلاقي والدعوي.

وبعدَ ذلك يتفقون على وضعِ خطةٍ جادة، مبرمجةٍ دقيقة، يخططون فيها لحياتهم، ويُبرمجونَ فيها أَوقاتَهم، ويُسجلون فيها حاجاتهم، ويستشرفون فيها أَشواقَهم وآفاقَهم وآمالهم، ثم يَتعاهدون فيما بينهم على العزمِ والجديةِ في التنفيذ الحازم، ويُعين بعضُهم بعضاً على الارتقاء والاستعلاء!

إِننا ندعو إِلى الإكثارِ من جلساتِ المناصحة والمصارحة والمكاشفة، بين الإخوةِ أصحابِ العلم، وساعاتِ المذاكرة

والمحاسبة بينهم، ليساعدَ بعضُهم بعضاً على التخلصِ من أمراضِنا ونقائصنا وعيوبنا، والارتفاعِ على كسلنا وضعفنا، وإِشباعِ حاجات قلوبنا، وأَشواقِ أرواحَنا، والارتواءِ من مَعين العلمِ والثقافة، إذا فعلْنا ذلك نكون قد خطوْنا خطواتٍ إيجابية عملية، نحو الغاياتِ المرجوّة!

معالم الخطة المرجوة

اتفقْنا على أنْ يجلسَ صاحبُ العلم مع نفسه، جلسةَ مصارحةٍ ومحاسبة، ليضعَ خطةً للارتقاءِ بنفسه، والاستفادةِ من حياته، واستغلالِ سنواتِ عمره، ونصَحْنا أنْ يلتقيَ إخوةٌ متآلفون صادقون في عدةِ جلسات، ويتعاونوا فيما بينهم على وضع الخطة المرجوة.

أسئلة للإصلاح والتغيير

يبدأُ كلُّ صاحبِ علم بطرْحِ مجموعةٍ من الأسئلة على نفسه، وتدوينِها على أوراقه التي أَمامه، ليبحث عن إجابات جادة صادقة عليها:

من هذه الأسئلة: مَنْ أَنا؟ وما هدفي الذي أُريدُ تحقيقَه؟ وما الطريقُ التي أُحققه من خلالها؟ وما هوّيتي وانتمائي؟ وهلِ أَنا عبدٌ لله حقاً؟ وهل تنعكسُ علَيَّ مظاهرُ العبوديةِ لله؟ وهل أَسيرُ فعلاً في طريقِ رضوانِ الله؟ وإذا متُّ الآن فهلْ أكونُ مع أَصحابِ الجنة أَو أكونُ مع أَصحاب النار؟ وهل اللهُ راضٍ عنّي فعلاً؟

وما هي أَخطائي وتقصيراتي؟ وأينَ مظاهرُ ضعفي؟ وأَين الخللُ في شخصيتي؟ وكيفَ حالتي الروحية والقلبية؟ وهل أملكُ نفساً توّاقة للمعالي؟ أم نفسي تعيشُ في غفلةٍ وكسل؟ وكيف أَرتقي في العلمِ والتربية والدعوة؟ وكيفَ أتغلبُ على العقباتِ والعوائق؟ وكيفَ أعصرُ عمري وأَستفيدُ من ساعات يومي؟ وما البرنامجُ العمليُّ الذي ألتزم به؟ و. . . الخ.

معالم هادية للإجابات

وحتى يتمكنَ أصحابُ العلم من الإجاباتِ الصحيحة على تلك الأسئلة، وحتّى ينجحوا في وضعِ خطةٍ علمية مرجوة، فإننا ننصحُهم بالقيامِ بما يلي:

١ ـ تسجيلُ الهدفِ الأسمى الذي يريد كلٌّ منهم تحقيقَه، والذي تحدَّثْنا عنه من قبل. وخلاصتُه: أَن ينالَ رضوانَ الله، بأنْ ينجيه اللهُ من النار، وأنْ يدخلَه الجنة.

٢ ـ تسجيلُ الوسيلةِ إلى تحقيقِ ذلك الهدف، وهي أنْ يحسنَ صاحبُ العلم عبادةَ الله، بمفهومِها العام الشامل، الذي أَشرْنا له من قبل.

٣ ـ تذكُّرُ الواجباتِ والأوامر والتكليفات، وتسجيلها، ومحاسبةُ النفس على مستوى وإحسان الالتزام والتنفيذ.

٤ ـ تذكُّرُ المحرماتِ والمنهيات التي نهاهُ الله عنها، وتسجيلُها، ومحاسبةُ النفس على مستوى الالتزام والانضباط والترك.

٥ ـ الوقوفُ على مدى حاجتِه إلى العلم والمعرفة والثقافة، وما ينقصُه من الأُصول والأساسيات في ذلك، ونوعُ العلم الشرعي الذي يجدُ في نفسه مَيْلاً إليه، وقدرةً على فهمِه والتفاعلِ معه، والإبداعِ فيه.

٦ ـ استحضارُ أهميةِ الوقت والاستفادة منه، وقِصَرِ العمر ووجوبِ استغلاله، وعظمِ الأجر والثواب عند الله، وفضْلِ العلم والتعلم، وفضْلِ العلماء والمتعلمين، وحسن منزلتهم عند الله.

٧ ـ الاهتمامُ بالتخطيطِ الجيدِ والبرمجة الدقيقة، لضمانِ حسن الاستفادة من الوقت، وتلبيةِ حاجات النفس العلمية.

عندما يستحضرُ أصحابُ العلم هذه الأمور، ويسجلونَها أَمامهم، تكون «معالمَ وبصائرَ» هادية منيرة، تنيرُ لهم طريقَهم، وتُعينُهم على حسن برمجةِ أوقاتهم، وتحصيلِ علومهم وثقافاتهم.

ترتيب الأولويات

على صاحبِ العلم أنْ يُحسنَ النظرَ إلى العلم والتحصيل، وأنْ يُحسنَ «ترتيبَ الأولويات»، فلا تختلطُ عليه الأمور، ولا تلتبسُ عليه الحقائق، لا يقدمُ المهمَّ على الأهم، ولا يقدمُ الفرعَ على الأصل، ولا يتشاغلُ بالهامشيات والشكليات عن الأصولِ والأساسيات.

أسس في ترتيب الأولويات

ومما يعينُه على حسن ترتيبِ الأولويات، وحسنِ تخطيطِ وبرمجةِ الأوقات، الانطلاقُ في خطته العلمية من الأسسِ التالية:

١ ـ البدءُ بالأهم فالأهم، وتقديمُ الأهمِّ على المهم.

٢ ـ البدءُ بالأُصول الأساسية في حقولِ وميادين العلم الشرعي، والأُصول هي: العقيدة، والتفسير، والحديث، والفقه، واللغة، والتزكية، والواقع المعاش.

٣ ـ تقديمُ الواجبات على السنن والنوافل والفضائل.

٤ ـ الانطلاقُ من الأَصليْن الأساسين عندنا، وهما: القرآن والسنة.

٥ ـ توطينُ النفس على الإقلالِ من المباحات، وتركُ توافِهِ الأعمال والأشغال، التي تمتصُّ الأوقات، والتقليلُ من الارتباطات الاجتماعية العامة.

٦ ـ التنُّوعُ النافعُ في الزادِ العلمي، وحسنُ ترتيبِ الفقراتِ العلمية، وإِدخالُ فقراتٍ تنشيطية في «البرنامج العلمي»، وذلك ليطردَ الملَلَ والسآمة، وتكونَ نفسُه أنشط وأكثرَ حيويةً وتفاعلاً.

عشرة حقول للعلوم الشرعية

ومن حسْنِ ترتيبِ الأولويات عند صاحب العلم ترتيبُ العلومِ الإسلامية في قائمةٍ منهجيةٍ علمية:

١ - إِحسانُ تلاوةِ القرآن، وإِتقانُ أحكامِ الترتيل، وختمُ القرآن بترتيلِه على شيخٍ متقنٍ لأحكامِ الترتيلَ، فلا يُقبَلُ من صاحب العلم أنْ يخطىءَ في قراءة القرآنَ، كما لا يُقبلُ منه التلاوة بدون ترتيل، أو الوقوعُ في خطأ عند الترتيل.

٢ - الالتزامُ بالوردِ القرآني اليومي، بأنْ يكونَ لصاحب العلم وقتاً خاصاً للقرآن، يقرأُ فيه جزءاً من القرآن كلَّ يوم، بحيثُ يختمُ القرآنَ كلَّ شهر مرة.

٣ - قراءةُ تفسيرٍ متوسطٍ للقرآن - على الأقل - كاملاً، وفقَ برنامجٍ محدد، بحيثُ يطلُع على تفسيرِ كلِّ آية فيه، وهذا حدٌّ أَدنى لصاحب العلم الشرعي، لا يجوزُ أن يتنازلَ عنه. فلا يَعرفُ القرآنَ مَنْ لم يتمَّ قراءةَ تفسيرٍ متوسط، كتفسيرِ القرآن العظيم لابن كثير مثلاً.

٤ - قراءةُ كتابٍ في الحديث الصحيح، وفقَ برنامجٍ محدد، ويُتمُّ قراءةَ الكتاب كاملاً، ولْيكنْ صحيحَ الإمامِ مسلم رضي الله عنه، لأنَه أحسنُ تبويباً وجمعاً للفظِ الحديث من صحيح الإمام البخاري.

٥ - قراءةُ كتابٍ في العقيدة، ليتعرفَ على مسائلِ العقيدة وأركان الإيمان، ولو بَدأَ بكتاب «الإيمان» للدكتور محمد نعيم ياسين، لكان جيداً.

٦ - قراءةُ كتابٍ متوسطٍ في الفقه والأحكام، وفقَ جدولٍ

زمني مبرمج، وفقَ المذهبِ الفقهي الذي يسيرُ عليه، ويكونُ الكتاب ملتزماً بعرضِ المسألةِ مع دليلها، مثل «الفقه المنهجي على مذهب الشافعي» لمصطفى البغا وزملائه.

٧ ـ قراءةُ كتابٍ في السيرة النبوية، ليقفَ على سيرةِ رسول الله ﷺ. وننصحُ بكتابِ «صحيح السيرة النبوية» لأخينا الشيخ إبراهيم العلي.

٨ ـ قراءةُ كتابٍ مختصرٍ في النحو وقواعدِ الإعراب، ليبدأَ بداياتٍ نافعة في علم النحو، وننصحُ بكتاب «النحو الواضح» لعلي الجارم، أو «التطبيق النحوي» للدكتور عبده الراجحي.

٩ ـ قراءةُ كتابٍ في التزكية والتربية، لتسموَ روحُه، ويشرقَ قلبُه، وتتحسنَ أخلاقُه، على أنْ لا يكونَ في الكتاب أفكارٌ مغاليةٌ مخالفةٌ للمنهج النبوي في التربية والتقويم. وننصحُ بكتاب «تهذيب مدارج السالكين» حيثُ هذَّبَ فيه الأستاذُ عبدُ المنعم صالح العلي كتابَ «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» للإمام ابن قيم الجوزية.

١٠ ـ قراءةُ كتابٍ في المذاهب والأفكار والاتجاهات الفكرية الجاهلية المعاصرة، التي يؤمنُ بها أُناسٌ كثيرون من الجاهليين في العالم، والتي تغزو عقولَ وأفكارَ أبناء المسلمين. وننصحُ بكتاب «مذاهب فكرية معاصرة» للأستاذ محمد قطب.

برمجة جادة لهذه الحقول

هذه هي «الحقولُ الأساسية» للعلوم الإسلامية، وهذه هي الكتبُ الأوليةُ في هذه الحقول، وعلى صاحبِ العلم أنْ لا يقدِّمَ غيرَها عليها، لأنَّ ترتيبَ الأولويات مطلوبٌ منه، حتى يعرفَ بماذا يبدأ، وبماذا يُكمل!

وبعد أنْ يقومَ صاحبُ العلم بترتيبِ الأولويات يقومُ بوضعِ «برنامج منهجيٍّ أُسبوعي جاد» ليحسنَ الاستفادةَ من أيام الأسبوعِ وساعاتها، ويُحسنَ «توزيعَ» هذه الأولوياتِ الضرورية على برنامجِ أُسبوعه، بأنْ يحددَ لكلِّ علمٍ من هذه العلوم أكثرَ من «جلسةٍ» أسبوعية.

ثم يأخذُ نفسه بالمجاهدةِ للالتزام بذلك البرنامج المدروس، وذلك التخطيطِ المبرمج، ويتعاملَ معها بالعزيمة الصادقة والهمة العالية، ويَستعلي على عواملِ الضعف والكسل، ويسمو ويرتقي في عالمِ التسامي والفضْل!

ولْيتذكرْ مَعَنا قولَ الشاعر:

دقّاتُ قَلْبِ المَرْءِ قائِلَةٌ لَهُ ... إِنَّ الحَيـاةَ دَقـائِـقٌ وَثَـوانـي

فَارْفَعْ لِنَفْسِكَ بَعْدَ مَوْتِكَ ذِكْرَها ... فَالذِّكْرُ لِلإِنْسانِ عُمْرٌ ثاني

* * *

كيفية تنفيذ الخطة المبرمجة

تكلَّمْنا في المبحثِ السابقِ عن تخطيطِ صاحب العلم لحياته، ووضْعِ خطةٍ موضوعيةٍ مبرمجة للتحصيل العلمي.

ونتحدثُ هنا عن أُمورٍ تساعدُه على تنفيذِ تلك الخطة.

لا بـدَّ أن تكـونَ الخطـةُ متفقـةً مـع ميـولِ صـاحـب العلـم واهتماماته، بحيث تركزُ على الميدانِ العلميِّ الذي يَميلُ إِليه أكثر، على أن لا يهملَ الميادينَ الأخرى، فإذا كان ميلُه إِلى «العقيدة» أكثر، ركَّزَ على مسائِلها وكتبها أكثر، وهكذا. . .

ولا بدَّ أنْ تكونَ الخطةُ «مرنة»، وليستْ حرفيةً صمّاءَ حادة، مرنةً بحيث تستوعبُ المفاجآت، وتمتصُّ المعوقات، وتتفاعلُ مع المستجدات، وتقبلُ التعديلَ والإِضافة والنقصان، وفقاً للظروفِ والأحوالِ والحاجات.

ونشيرُ هنا إلى هذه «القواعد» الضرورية لتنفيذ الخطة:

أ ـ المشارطة:

على صاحبِ العلمِ أنْ «يشارطَ» نفسه لتنفيذِ خطته، فهو قد أعدَّ «برنامجاً» يومياً أو أسبوعياً مُدَوَّناً، وحددَ فيه كلَّ ما يريدُ

عملَه يوماً بيوم، وساعةً بساعة، ولكن كيفَ ينفذُ هذا البرنامجَ المدوَّن!

يبدأُ أولاً بالمشارطة، وذلك بأنْ يجلسَ في كلِّ صباح جلسةً إيمانية، يتحدثُ مع نفسه ويعاهدُها ويشارطُها.

يتذكرُ في هذه الجلسة التي لا تتجاوزُ بضعَ دقائق ـ لا تزيدُ عن ربعِ ساعةٍ مثلاً ـ وظيفتَه ومهمتَه، ويستحضرُ واجباته التي أَوجبَها اللهُ عليه، ثم يتذكرُ ما ينتظرُه من مستقبلٍ علميٍّ وعمليٍّ ودعوي، ويشحذُ همتَه وعزيمتَه وإرادتَه، ويضعُ أمامَه برنامجَه العلميَّ المدون، ويتذكرُ المطلوبَ منه في هذا اليوم، ثم يقومُ بمشارطةِ نفسه.

ونعني بالمشارطةِ أنْ يضعَ على نفسه الشروط، وأنْ يأخذَها بالعزائم، وأنْ يَعِدَها بالوعود، وأنْ يُطالبها بالالتزام بالمطلوب منه، وتنفيذِ الخطة التي أمامَه، أنْ يُذَكِّرها بما لها وما عليها. كأنْ يقولَ لها:

العمرُ قصير، واليومُ منقَضٍ، والساعاتُ ذاهبة، والواجبُ كبير، والمهمةُ عظيمة، والطريقُ شاقة، والجزاءُ جزيل، والعاقبةُ مأمونة.

يا نفسُ: هذه الفرصةُ سانحة، فعليكِ بحسن استغلالِها والاستفادةِ منها، وإنْ كنتِ ضيعْتِ هذه الفرصة فستندمين ندماً شديداً، فلماذا تخسرين؟ ولماذا تضعفين وتَكسلين؟

يا نفسُ: عليك هذا اليوم أنْ تفعلي كذا ساعةَ كذا، وأنْ تفعلي كذا ساعة كذا، وعليك أنْ تلتزمي بذلك، وإلاّ عاقبْتُك!!.

هذه المشارطةُ ضروريةٌ في بدايةِ كلِّ صباح، لضمانِ حسْنِ المنطلقِ العمليِّ اليومي، والحرصِ على الانضباطِ التام بالبرنامج العلمي.

ب ـ المراقبة:

بعد المشارطةِ والاتفاق يبدأُ التنفيذُ والتطبيق، فصاحبُ العلم يلتزمُ بالبرنامج المدوَّنِ أمامه، ويطبقُ فقراتِه ووحداتِه وموادَّه، وفقَ الوقتِ المحدد لكلِّ فقرةٍ ومادة.

المهمُّ أنه لا بدَّ من «المراقبة» الدقيقةِ الأمينة الواعية عند التنفيذ، لئلا يقعَ خللٌ في البرنامج، أو يُساءَ أداءُ الفقرة.

عندَ أداءِ كلِّ فقرة يستحضرُ صاحبُ العلم نيتَه، لتكونَ تلك الفقرةُ عبادةَ لله، يبتغي بها وجْهَ الله، وليتفاعلَ كلُّ كيانه مع أدائها، وليتذوقَ ذلك ويَستمتعَ به، ثم يستشعرُ صاحبُ العلم رقابةَ الله عليه، وإحاطةَ سمعِه وبصرِه وعلمِه به، ليخلصَ في تنفيذِ وأداءِ الفقرة.

ج ـ المجاهدة:

أَثناءَ أداءِ البرنامجِ العمليِّ اليومي لا بدَّ لصاحب العلم أنْ يجاهدَ نفسه لتلتزمَ به، فهو قد شارطها أَوَّلاً، وقد راقبها ثانياً،

والآن عليه أنْ يُجاهدَها، لأنَّ طبيعةَ النفسِ أَنها تحبُّ الراحةَ، وتُؤثِرُ الكسل، وتنفرُ من الانضباطِ والالتزام، وتعزفُ عن الأعمالِ المكْلِفة الشاقة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

هذه النفسُ الكسولةُ الأَمَّارةُ بالسوء، قد توسوسُ لصاحبها، وتَدْعوه إلى أنْ يتخلّى عن برنامجه، ويعيشَ كما يعيشُ الناس العاديون الكُسالى، فإنِ استجابَ لوساوسها خسرَ عمره، وفشلَ في خطته، وضاعَتْ فرصتُه.

لذلكَ عليه أنْ يُجاهدَها ويُربيها ويضبطَها، عليه أنْ يأخذَها بالعزيمةِ والشدة، ويسوسَها بالحزِم والجزم، وكلَّما ضعفتْ قَوّاها، وكلما تراخَتْ شجَّعَها.

لا بدَّ أنْ تكونَ نفسُ صاحبِ العلم تابعةً له ليطبقَ خطتَه، ولا يجوزُ أنْ يكونَ هو تابعاً لها:

والنَّفسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهمِلْهُ شَبَّ عَلى ... حُبِّ الرَّضاع وَإِنْ تَفْطمْهُ يَنْفَطِمِ
وَخالِفِ النَّفسَ وَالشَّيْطانَ وَاعصِهِـ ... ـما وِإِنْ هُما مَحَّضاكَ النُّصْحَ فَاتَّهِمِ

إِن أُناساً تَبعوا نفوسَهم الكسولةَ فخسروا، وَاستْسلموا لها فضاعوا، وإِنَّ أَصحابَ العزائمِ والهمم جاهدوا نفوسَهم ففازوا، واستغلّوا قدراتها وطاقاتها فربحوا: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

د ـ المحاسبـــة:

هذه هي الخطوةُ الرابعة، فصاحبُ العلمِ قد شارطَ نفسه قبلَ التنفيذ، وراقبَ اللهَ فيها أَثناءَ التنفيذ، وجاهدَها ليضمنَ دقةَ وصحةَ التنفيذ، والآنَ عليه أنْ يحاسبَها بعدَ التنفيذ.

لقد سبقَ أنْ طالَبْنا صاحبَ العلم أنْ يخلوَ إلى نفسه فترةً من الوقت في بدايةِ يومه ليشارطها، وبعد انتهائِه من يومه، وتنفيذِه لبرنامجه، نُطالبُه أنْ يخلوَ إلى نفسه فترةً أُخرى من الوقتِ ليحاسبها، وليعرفَ ما لَها وما عليها.

قبلَ أنْ يأويَ إلى فراشِه، يتوقفُ مع نفسه دقائق ـ لا تتجاوزُ ربعَ ساعة ـ ويستعرضُ معها أعمالَه طيلةَ يومه، ويستذكرُ فيها برنامجَه وخطته، ويسيرُ مع نفسه في فقراتِ البرنامج وساعاتِ اليوم.

يلاحظُ مواضعَ إجادتِه وإحسانه، وحسناتِه وصالحاته، ويحمدُ اللهَ ويشكره على ما أَعانَه ووفَّقه من ذلك.

ثم يتعرفُ على مواضعِ النقص والخطأ والخلل، ويقفُ على عيوبهِ وتقصيراتِه، ويمسكُ ورقةً وقلماً، يُدوِّن تلك النقائصَ والعيوبَ والأخطاء، ليعملَ على إِصلاحِها وتقويمِها في الأيام التالية.

ثم يجمعُ مخالفاتِه وذنوبَه ومعاصيه، مهما بَدَتْ في عينه

صغائِرَ وتوافِه، ويستغفرُ اللهَ منها، ويندمُ عليها، ويتوبُ منها، ويُذيبُها بالندمِ والاستغفار. ويدعو الدعاءَ الذي هو سيدُ الاستغفار: «اللَهمَّ أَنت ربي، لا إِله إِلا أنت، خلقْتَني وأَنا عبدُك، وأنا على عهدِك ووعْدِك ما استطعت، أَعوذُ بك من شرِّ ما صنعت، أَبوءُ لك بنعمتِك عليّ، وأَبوءُ بذنبي، فاغْفِرْ لي، فإنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت..».

ثم يقول: «أَستغفرُ اللهَ العظيم، الذي لا إِلهَ إلاّ هو الحي القيوم، وأتوبُ إليه..»، مائة مرة.

وهو بهذه المحاسبةِ اليومية قبل النوم يُصوبُ مسيرتَه، ويصححُ عملَه، وينظفُ «ملفَّه»، ويُزيلُ أَخطاءَه، ويُذيبُ ذنوبَه، ويفعل ذلك أَوَّلاً بأول، ويوماً بيوم، ويبقى بذلك دائماً في صفاءٍ ونقاء.

وصدقَ أَميرُ المؤمنين عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه حيث يقول: «حاسِبوا أَنفسكم، قبل أَنْ تُحاسَبوا، وَزِنوا أَعمالكم، قبلَ أنْ توزَنَ عليكم.».

وبعد الانتهاءِ من «وِرْدِ» المحاسبة، و«وِرْدِ» الاستغفار، يستحضرُ معالمَ برنامجه لليوم التالي، ويستحضرُ نيَّته وهمتَه وعزيمتَه للالتزام به، ويشحنُ كَيانَه بهذه الهمةِ والعزيمة، ثم ينامُ على هذه النية والعزيمة، وبذلك يكونُ قد نامَ على أَفضلِ العزائم!!.

ومما يكملُ حسنَ تطبيقِهِ لبرنامجه وخطته، أنْ يضيفَ للقواعدِ الأربعة السابقة ما يلي:

هـ ـ المعاتبــة:

وذلكَ بأنْ يقومَ صاحبُ العلم بمعاتبةِ نفسه، بين الحينِ والآخر، في فتراتِ الليل أو النهار، وهو جالسٌ أو وهو يسير، أَثناءَ العمل أو بعده.

وهذه المعاتبةُ لا تزيدُ عن خمسِ دقائق، وكيفيتُها أنْ يخاطبَ نفسه، مذَكِّراً لها بالواجب، منَبِّهاً لها على التقصير، حاثّاً لها على الاستمرار في المسير.

كأنْ يقولَ لها: حَتّى متى تبقينَ يا نفسُ هكذا؟ وهاهي الساعاتُ والأيامُ والسنواتُ تمضي، يفوتُك فيها خيرٌ كثير! أينَ أنتِ من الرواد السابقين المقربين؟ أينَ أنتِ من العلماءِ المخلصين؟ أينَ أنتِ من الدعاة العاملين؟ أينَ أنتِ من أصحاب جنة النعيم؟ لو مِتِّ الآن يا نفسُ فهلْ تدخلين الجنة؟ هل يرضى ربُّكِ منكِ يا نفسُ وأنتِ كسولةٌ عاصيةٌ مقصرة؟ لماذا لا تتعلمين من أخطائك؟ ولماذا لا تتخلَّصين من نقائصك؟

دقائقُ المعاتبةِ السريعة يومياً لشحذِ النفس، وتقويةِ الإرادة، وتَمتينِ العزيمة، والاستعلاءِ على الكسل والفتور والضعف، ومسارعةِ الخطى، وضبطِ العمل وإتقانه وتجويده.

على أنْ لا تتحولَ المعاتبةُ إلى «جلد للذات»، يتحولُ إلى يأسٍ وتحطيمٍ وإحباط، فإذا ما أحسَّ صاحبُ العلم بأنه مقصِّرٌ في كلِّ شيء، تحطمتْ معنوياتُه، وأُحبطتْ همتُه، ورأى نفَسه خاسراً فاشِلاً ضائعاً، وأحسَّ بأنه لا يصلحُ لشيء، عندها يكون «مريضاً نفسياً»، مُعقَّداً تائهاً محتاراً!!

فالمعاتبةُ علاجٌ وليست مرضاً، عندما تكون بالمقدارِ المناسب، وتوظَّفُ لهدفٍ مناسب.

و - المعـاقبة:

إذا رأى صاحبُ العلم من نفسِه تَمَنُّعاً أحياناً، وأحسَّ أنها لا تتجاوبُ أحياناً مع المشارطةِ والمراقبة والمجاهدة والمحاسبة والمعاتبة، وتُصِرُّ على كسلِها وضعفها ومخالفتِها، فعليه أنْ يُعاقبَها.

هذه المعاقبةُ تكونُ أَحياناً وليست دائماً، حتى لا تفقدَ أَثرها، وحتى لا «تُدمن» النفسُ عليها، ولا تعودَ تُبالي بها.

هذه المعاقبةُ تُعطىٰ بالمقدار المناسب باعتبارِها علاجاً، ولا يَجوزُ أنْ تتحولَ إلى «انتقام» وتحطيم. فهو عندما يُعاقبُ نفَسه يريدُ بذلك تربيتَها وإِصلاحَها وتقويمها، ولا يُريدُ تحطيمَها والقضاءَ عليها.

لا يجوزُ أنْ تكونَ هذه المعاقبة بالعبادات، كأنْ يقولَ لها: بما

أنكِ لم تنضبطي يا نفسُ فعقوبتُك أنْ تقومي الليلةَ القادمة كلَّها، بأنْ تُمضيها في صلاةٍ وتهجدٍ ودعاءٍ وقراءةِ قرآن، أَو عقوبتُك أنْ تصومي يومَ كذا وكذا، أو عقوبتُك أنْ تَقرئي كذا وكذا من القرآن، أو عقوبتُكِ أنْ تُطالعي كتابَ كذا وكذا.

لا يجوزُ المعاقبةُ بالعباداتِ والطاعاتِ والقرآنِ والنوافل والعلم، لأن هذه الطاعاتِ والعبادات ذاتُ أثرٍ إيجابي، ومفعولٍ تربوي، ونتائجَ نافعة، والنفسُ تكرهُ المعاقبة، وتكرهُ وسيلةَ العقوبة، وعندما يعاقِبُ صاحبُ العلم نفسَه بالعبادات والطاعات، تنفرُ نفسُه من تلك الطاعة، وتكرهُ تلك العبادة، وبذلك يَجني على نفسه بدلَ أنْ يُحسنَ إليها!!

المعاقبةُ تكون بحرمانِ النفس من بعضِ المباحات، أو تقليلِ بعضِ المرغوبات. كأنْ يعاقبها بعدمِ الخروج إلى مكانٍ تحبُّه وتألَفُه، أو بتقليلِ كميةِ الطعام في وجبةٍ من الوجبات، أَو حرمانِها من صنفٍ لذيذٍ تحبُّه من أصنافِ الطعام، وإعطائِها صنفاً آخرَ دونَه عندها، أو تقليلِ ساعاتِ النوم من ستٍّ إلى خمسٍ في تلك الليلة.

ويصارحُها بأن هذه المعاقبةَ إنما بسببِ خطئِها الفلاني، أو تقصيرِها الفلاني، وذلك لتنتبهَ وتتربّى وتستقيم.

ز ـ المكافأة:

المكافأةُ هي الجانبُ المقابلُ للمعاقبة، وهما ضرورريانِ للتربية

والتزكية، على أنْ يكونا متوازنيْن متكاملين، وإذا فُقِدَ أحدهما لم تتمّ التربيةُ على الوجه المرجوّ.

فكما أنّ صاحبَ العلم يعاقبُ نفسَه إذا قصّرتْ، عليه أنْ يكافِئَها إذا أَجادتْ واستجابت، فيُعطيها ويُثيبها ويُثني عليها.

إن النفسَ المستجيبةَ تستحقُّ الثناءَ والمكافأةَ، لتنشطَ وتتفاعل، وتؤدّي المطلوبَ بأريحيةٍ ونشاط، وتقدمَ المزيدَ من العطاء والالتزام.

يُكافىءُ نفْسَه بمنحها بعضَ المباحات، كأنْ يَصرفَ لها بعضَ عباراتِ الثناء والتقدير، أو يُعطيها فترةً قصيرة من الراحة، على أنْ لا تكونَ على حسابِ البرنامج الموضوع، أو يُمتعَها برحلةٍ قصيرة إلى منطقةٍ جميلة، لتستعيدَ نشاطها وحيويتها.

بهذه الأمورِ السبعة: المشارطةِ والمراقبةِ والمجاهدةِ والمحاسبةِ والمعاتبةِ والمعاقبةِ والمكافأةِ يتمكنُ صاحبُ العلم من تنفيذِ خطته، مستعيناً بالله.

* * *

مع صاحب العلم في ساعات يومه

صاحبُ العلم يعلمُ قيمةَ الوقت، وأهميةَ حسْنِ استغلالِ الساعات، وملْئِها بالأُمورِ النافعة، والحرصِ على عدم تضييع ساعةٍ منها بدون فائدة، وبرمجةِ ساعاتِ يومه برمجةً علميةً موضوعيةً هادفة.

على صاحبِ العلم أنْ يعرفَ متى يأكلُ ومتى يشرب، ومتى يستريحُ ومتى يسترخي، ومتى ينامُ ومتى يقوم، وأنْ يبرمجَ هذا بدقةٍ وعناية.

برمجة ساعات اليوم

ونحاولُ هنا أنْ نسيرَ مع صاحبِ العلم في ساعاتِ يومه.

نعلمُ أنَّ ساعاتِ يومه أربعٌ وعشرون ساعة، وهي نفسُ ساعاتِ أيِّ إنسانٍ على وجه الأرض، لكنَّ الفرقَ بينَ صاحب العلم وبين الإنسان الآخر ليس في عددِ ساعات اليوم، إنما في كيفيةِ مرورِ وانقضاءِ هذه الساعات.

إنَّ معظمَ الناس لا يهتمونَ بساعاتِ يومهم، ولا يعرفونَ كيفيةَ استغلالها، ولا يُدركون أَهميتَها، ولا يَشعرون بمرورها، أما

صاحبُ العلم فله في التعاملِ مع ساعاتِ يومه طريقةٌ أخرى مختلفة.

إنه يبرمجُ هذه الساعات الأربعَ والعشرين، وفْقَ خطةٍ مدروسة، إنه يستغلُّ كلَّ ساعة وكلَّ دقيقة، ويوظفُها لتحقيقِ خطتِه العلمية البراقة التي أَشرنا لها من قبل.

الحسابُ عنده هكذا: هذا اليومُ أربعٌ وعشرون ساعة، وكلُّ ساعةٍ ستون دقيقة، ومجموعُ دقائق اليوم هو ألفٌ وأربعمائةٌ وأربعون دقيقة. فكيفَ يقضي هذه الساعاتِ النفيسة والدقائقَ الغالية؟

تحذير من الغفلة

على صاحبِ العلم أنْ يحذرَ العدوَّ اللدودَ الذي يُضيِّعُ عليه ساعاتِ يومه، إنه «الغفلة»، الغفلةُ عن نفسه، وعن وظيفته، وعن واجباتِه، الغفلةُ عن حياته وغايته، وقضاءُ يومه في ضياعٍ وحيرةٍ وفوضى.

الغافلون خاسرون في الدنيا والآخرة، وقد قَررتْ هذه الحقيقةَ عدةُ آياتٍ من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ...﴾

[الأنبياء: ١ ـ ٣].

وقوله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَاخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾
[الأنبياء: ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ١٩ـ٢٢].

وهؤلاء الغافلونَ الخاسرونَ وقودُ النار، وهم في الدنيا أضلُّ من الأنعام. لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

والمؤمنُ الصالحُ صاحبُ العلم ليس من الغافلين، وإنما هو متيقِّظٌ منتبه، عابدٌ ذاكرٌ لله. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾
[الأعراف: ٢٠١].

ويوجِّهُه الله إلى ذكْره وعبادته، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾
[الأعراف: ٢٠٤ ـ ٢٠٥].

وينهى اللهُ كلَّ صالح عن اتباع وطاعةِ كلِّ مَنْ طبعَ اللهُ على قلبه فكان من الغافلين: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٧].

على صاحبِ العلم أنْ ينتبهَ لهذه الآياتِ وأمثالها، ليحذَرَ الغفلة، ويحرصَ على أن لا يقعَ فيها.

كان الصالحون السابقون يُكثرون من الدعاءِ بهذيْن الدعاءيْن: «اللهمَّ إنّا نسألك إصلاحَ الساعات والبركةَ في الأوقات.» و: «اللهمَّ لا تجعَلْنا في غَمْرَة، ولا تأخذنا على غِرَّة، ولا تجعلْنا من الغافلين.».

الشعور بقيمة الساعات

إنَّ صاحبَ العلم العارفَ بقيمةِ وقته، الحذِرَ من الغفلة، يزعجُه مرورُ الساعات، ويُحزنُه انقضاءُ الأوقات، لأنه يستغلُّها في الصالحات، ولا يَدري كيفَ تنقضي ساعاتُه، ومن ثمَّ لا يشعرُ بقلقٍ ولا سأَم، ولا ضجرٍ ولا إرهاق، ولا يُعاني من مشكلةِ «الفراغ» القاتلة، التي تزعجُ كثيراً من الفارغين الغافلين.

إذا كان الإنسانُ العاديُّ يفرحُ لمرورِ الساعات، وتَعاقُبِ الليل والنهار، وانقضاءِ الأيام والشهور والأعوام. فإنَّ صاحبَ العلم على العكس، يتألمُ لمرورِ الساعات، لأنها عنده ثمينة، وكم يتمنّى لو ضوعفَتْ ساعاتُ يومه، ولو كانت خمسين أو ستين ساعة في اليوم.

وإذا كانَ الإنسانُ العاديُّ يراقبُ الليل، ويَشعرُ بالأرَق،

ويستجلبُ النومَ بالعلاجات، وينادي قائلاً:

يـالَيْـلُ الصَّـبُّ مَتـى غَـدُهُ؟ أَقيـامُ السّـاعَـةِ مَـوْعِـدُهُ؟

فإنَّ صاحبَ العلم لا يَأوي إلى فراشه إلاّ وهو طالبٌ للنوم، راغبٌ فيه، وما هي إلاّ دقائقُ معدودة حتى يكونَ في سُباتٍ عميق.

تفاوت الساعات حسب الفصول:

المقصودُ هو التذكيرُ بأنَّ الاستفادةَ من ساعاتِ اليوم متفاوتة، حسب فصولِ السنة، مما يوجبُ على صاحبِ العلم مراعاةَ ذلك في خطته وبرنامجه.

إننا نعلمُ أنَّ النهارَ في الشتاء قصير، وأنَّ الليلَ فيه طويل، بينما نَهارُ الصيف وليلُه على العكس، حيث يطولُ نهارُه ويقصر ليلُه.

وعلى صاحبِ العلم أنْ يستفيدَ من قصرِ نهارِ الشتاء، فيكثرَ من الصيام فيه، ويستفيدَ من طولِ ليل الشتاء، فيكثَر من القيام والتهجدِ فيه، وكان الصالحون السابقون يقولون: الشتاءُ ربيعُ المؤمن. يَطولُ ليلُه فيقومُه، ويقصرُ نهارُه فيصومُه.

ويكون غالبُ العلمِ والتحصيلِ عند صاحب العلم في ساعاتِ الليل، لأنَّ ساعاتِ النهار لا تكادُ تكفي للعملِ والحركة.

أما النهارُ في أيامِ الصيف فإنه طويل، وعلى صاحبِ العلم الاستفادةُ منها في التركيز على العلمِ والتحصيل.

الليلُ في الصيف قد لا يَصلُ إلى سبع ساعاتٍ أحياناً، فيجعلُها صاحبُ العلم للنوم، ويجعلُ آخرَ ساعةٍ منها للتهجد، فلا يكون في برنامجه العلمي فقراتُ دراسةٍ بعد العشاء في الصيف.

والنهارُ في الصيف يَزيدُ عن سبعَ عشرةَ ساعة أحياناً، فيحسنُ صاحبُ العلم استغلالَها في التحصيلِ العلمي والدعوي.

التكيف مع طبيعـة الفصول

وصاحبُ العلم يكيّفُ نفسَه مع ساعاتِ اليومِ حسب اختلافِ فصول السنة، ويُحسنُ الاستفادةَ من طبيعةِ كلِّ فَصْل، فلا تكونُ طبيعةُ الفصل معوقةً له عن التحصيل، ولا يتعلَّلُ بها في القعودِ والكسل.

وقديماً خاطبَ أَحدُ المربّين صاحبَ العلم قائلاً:

إذا كان يُؤْذيكَ حَرُّ المَصيفِ ... وَيُبْسُ الخَريفِ وَبَرْدُ الشِّتا

وَيُلْهيكَ حُسْنُ زَمانِ الرَّبيعِ ... فَأَخْذُكَ لِلْعِلْمِ قُلْ لي: مَتىٰ؟

لا يَجوزُ لصاحبِ العلم أنْ يكونَ كسولاً في الصيف، بسببِ الحرارة الشديدة، فيكثرَ من النوم في الليل والنهار، وإظهارِ الضجر والشكوى من الحر، ويجعلَ الحرَّ معوقاً له عن التحصيلِ والتعلم.

كما لا يجوزُ له أنْ يتأثَّرَ بالجفاف في فصلِ الخريف، ويتشاغلَ بذلك عن العلم.

وإذا جاءَ الشتاءُ ببرْدِه وزمهريرِه، وأمطارِه وعواصفه، لجأَ صاحبُ العلم إلى دفئه وفراشه، وتشاغَلَ بذلك عن علمِه وتحصيله، وعاشَ شُهورَ الشتاء في «رُقادٍ» علمي، إنْ فعلَ ذلك فكم يخسر!

وفي فصلِ الربيع تأخذُ الأرضُ زينتَها، وتبدو مشاهدُ الجمالِ والحسن في الطبيعة، من حيثُ الجوُّ الجميل، والأزهارُ الفاتنة، والبساطُ الأخضرُ يُغطي وجْهَ الأرض، فتحلو الرحلاتُ الممتعة إلى المناطق الجميلة.

لا يجوزُ لصاحبِ العلم أنْ يُلهيه حسنُ جمالِ الربيع، وأنْ تأخذَ هذه الرحلاتُ والمشاهد وقْتَه، ويتشاغلَ بها عن العلم والتحصيل.

على صاحبِ العلم أنْ يعرفَ تفاوتَ الاستفادةِ من ساعات يومه حسبَ فصولِ السنة، وأنْ يجعلَ لها اعتباراً في برنامجه العلميِّ والتربويِّ والدعوي.

إرشادات في برمجة الساعات:

نصحُ صاحبَ العلم باتباعِ الإرشاداتِ التالية، ليُحسنَ الاستفادةَ من ساعات يومه، ووضْعَ برنامجه العلميِّ النافع:

ست ساعات للنوم يومياً

١ ـ تحديدُ ساعاتِ النوم، وضبْطُها بدقة، ومجاهدةُ النفس على الالتزامِ بها، وعدمِ الزيادة عليها.

يكفي الإنسانُ السويُّ المعتدلُ ستَّ ساعاتٍ يومياً للنوم، أي: ربْعُ ساعاتِ يومه تكونُ للنوم، وهذه نسبةٌ فطريةٌ معقوله «٦ : ٢٤».

إذا نامَ صاحبُ العلم ثمانيَ ساعات أو عشرَ ساعات فكم سيخسر! لماذا يُضيعُ من عمره ساعتيْن أو ثلاثاً يومياً في النوم؟ إذا كان يكفيه ستُّ ساعات للنوم ـ وهي كافيتُه قطعاً! ـ فلماذا ينامُ تسعَ ساعات؟

عليه الالتزامُ بستِّ ساعاتِ نومٍ يومياً فلا يزيدُ عليها ـ إلاّ إذا كان مريضاً ـ ولا يُنقِصُ منها، وإذا أَنقصَ منها تأثَّرَ واختلَّتْ خطتُه، لأنَّ النفسَ لم تأخذْ حَقَّها من النوم، وسوف تتمردُ وتتمنَّعُ عليه، ولا تتجاوبُ معه.

ساعات النوم في الليل

٢ ـ حسْنُ اختيارِ ساعاتِ النوم، بأنْ تكونَ في الليل، ليحققَ النومُ غايتَه عنده، لأنَّ الفرقَ كبيرٌ بين نومِ الليل ونوم النهار.

بعضُ الناس يحلو لهم أنْ يَسهروا في الليل الساعاتِ الطويلة، ولا يكادون ينامون إلاّ في الوقتِ الأخير من الليل، وقتِ السحر، ويُعوضون ذلك بالنومِ في ساعات النهار.

وقد يُفضِّلُ صاحبُ العلم السهرَ في الليل، لما فيه من هدوءٍ وسكينة، ليُحصِّلَ العلمَ النافع، وينامُ في ساعات النهار، ويكونُ نومه في ساعاتِ الصباح الباكر، وقد يكونُ نومُه في وقتِ السحر، ويبقى نائماً إلى ما بعدَ خروجِ وقت الفجر، ولا يستيقظُ إلاّ قبيلَ الظهر.

وبذلك يخسرُ التهجد، والدعاءَ والتضرعَ وقت السحر، وصلاةَ الفجر، وقرآنَ الفجر، وأنفاسَ الصباح.

على صاحبِ العلم أنْ يجعلَ ساعاتِ نومه في الليل، ما بين صلاةِ العشاء ووقْتِ السحر.

وفي نهارِ الصيف الطويل يمكنُه أنْ ينامَ ساعةً أُخرى قبلَ صلاة العصر، ويُطبقَ سُنَّةَ «القيلولة».

السنة الربانية في الليل والنهار

٣ ـ التوافقُ مع السُّنَّةِ الربانية الكونية في النومِ واليقظة، وفي عملِ الليل وعمل النهار، وعدمُ مخالفةِ هذه السُّنَّة.

إنَّ اللهَ الحكيم قد جعلَ الليل سكناً هادئاً، ليسكنَ فيه الناس ويَناموا ويَهدؤوا ويَطمئنوا، وجعلَ لهم النهارَ منيراً مضيئاً، ليستيقظوا ويَنشطوا ويَعملوا ويتحركوا.

وقد أَشارتْ آياتُ القرآن إلى هذه السُّنَّةِ الربانية، وَذكَّرت المسلمين بها، ودعَتْهم إلى التوافقِ معها، وتكييفِ حياتهم وِفقَها.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٢ ـ ٧٣].

لقد جعلَ اللهُ الليلَ مظلماً ليسكنَ فيه الناس، وجعلَ النهارَ مُضيئاً ليتحركوا فيه، ويبتغوا من فضْلِ الله.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٦].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١].

على صاحبِ العلم أنْ يُدركَ الحكمةَ من تأكيدِ الآيات المذكورة على جعْلِ الليلِ للسكن والنوم، والنهارِ للعملِ والنشاط، حيث تكررتْ هذه الجملةُ ثلاثَ مرات: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾.

التوافق مع المخلوقات الحية في نوم الليل

ثم إنَّ المخلوقاتِ الحيةِ فطرَها اللهُ على التوافقِ مع السنة الربانية، فألَهمها السكونَ في الليل والاستيقاظَ في النهار، الطيورُ تنامُ مع غروب الشمس، وتستيقظُ قبيلَ شروق الشمس، الحشراتُ - إلاّ البعوض - تبرمجُ حياتَها على ذلك، الحيواناتُ - إلا بعض الحيوانات الكاسرة المفترسة - تفعلُ ذلك.

على صاحبِ العلم أنْ يتعلمَ من الطيور والعصافير، ليتوافقَ مع السُّنَّةِ الربانية الكونية، فيجعلَ الليلَ للسكون والنوم والراحة، ويجعلَ النهارَ للعلم والعمل والدعوة.

ثم إنَّ هذه هي سُنَّةُ رسولِ الله ﷺ، حيث كان عليه الصلاة والسلام يجعلُ الليلَ للنوم والتهجد والصلاة، وكان الصحابة يبرمجون حياتَهم على ذلك.

ونَعلمُ أنَّ السُّنَّةَ علَّمَتْنا أَنهُ يُكرهُ النومُ قبل صلاة العشاء، كما يُكرهُ السهرُ بعدها، إلاّ لعلمٍ أو مصلحة.

كان عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه يَدعو إلى عدم السهر بعد صلاة العشاء، والذهابِ إلى النوم، ليتكمنَ المسلمون من الاستيقاظ وقت السحر، لصلاة التهجد.

فعلى صاحبِ العلم أنْ يُبرمجَ حياتَه على أساس النوم المبكر والاستيقاظ المبكر.

وإنَّ نومَ ثلاثِ ساعات قبلَ منتصف الليل، لهو أفضلُ وأنفعُ من نومِ سبعِ ساعاتٍ في النهار.

نم باكراً واستيقظ باكراً

وأُقدمُ لصاحبِ العلم هذه الجملَ التي أَوردَها الدكتورُ حسان شمسي باشا في الفصل الثالث والعشرين «نَمْ باكراً واستيقِظْ باكراً» من كتابه النافع «وصايا طبيب»:

يقولُ الدكتور شابيرو: «إنَّ الذهابَ إلى النومِ في وقْتٍ معين كلَّ مساء، لا يُحَسِّنُ نشاطَ المرء في النهارِ فحسب، بل يُهيءُ الشخصَ لنومٍ جيد في الليلةِ التالية.».

ويقولُ البروفسور «أوزولد» ـ الذي قضى أَكثرَ من أَربعين عاماً يبحثُ في ظاهرةِ النوم في جامعة أدنبرة ـ «إذا كنتَ تريدُ أنْ تنامَ بسرعةٍ حين تخلدُ للنوم، فانهَضْ باكراً في الصباح، وافعلْ ذلك بانتظام، فبذلك تحصلُ على أَفضلِ أنواع النوم، وتكونُ أكثرَ سعادة، وأَعظمَ نشاطاً طوال النهار..».

ويقول صاحب كتاب «النومُ فَنّ»: «ولقد روعي في خلقِ أَجسامنا أنْ تتبعَ القوانين الطبيعية، فإذا خالَفْنا هذه القوانين يجبُ أنْ لا نلومَ سوى أنفسنا.».

ويقول: «ويجبُ أنْ ندركَ أنَّ تأثيرَ ساعاتِ ما قبل منتصف

الليل في إنعاشِ الجسم، أفضلُ عشرَ مرات من الساعاتِ التالية.».

وتقولُ الباحثة «نيريس دي» عن فائدةِ النوم المبكر: «إنَّ ساعةً قبل منتصفِ الليل تساوي ثلاثَ ساعات بعدَ منتصفه.»[1].

حسن استغلال وقت ما بعد الفجر

٤ ـ عدمُ تضييعِ ما بعد الفجر بالنوم، فهذا هو أفضلُ الأوقات وأَشرفُها، وهو أَنسبُ الأوقات للإبداعِ والفقه والإتقان.

الإنسانُ ينامُ في الليل، ويأخذُ الجسمُ حاجتَه من الراحة، كما يستريحُ فيه الدماغُ والمشاعرُ والأعصاب، وعندما يستيقظُ الإنسانُ عند الفجر، يكون في غايةِ النشاط والحيوية، في جسمِه وحواسِّه، وفي فكرِه وذهنه وعقله، وفي مشاعرِه وخواطره وأحاسيسه، فكلُّ هذه الجوانبِ من كيانه تكون جاهزةً للعمل، مستعدةً للبذل، قادرةً على العطاء، تنتظرُ صاحبَها ليأمرها ويكلِّفَها، إذ سُرعانَ ما تلبيّ أَمره، وتقومُ بما طلبه منها.

فعلى صاحبِ العلم أنْ يستغلَّ هذا الوقتَ الثمينَ المبارك، وأنْ يستفيدَ من حالةِ الحيوية والنشاط التي تكون عليها حواسُّه ومشاعرُه وأفكارُه.

وهذا هو هديُ رسولِ الله ﷺ، وصحابته الكرام، حيث كانَ

(١) انظر «وصايا طبيب» للدكتور حسان شمسي باشا: ١٠٤ـ١٠٥.

الرسولُ عليه الصلاة والسلام يستغلُّ وقتَ ما بعد الفجر، وما كانَ ينامُ فيه، لا هو ولا أَصحابُه.

إنَّ التبكير في الصباح مكسبٌ وفوز، وقد باركَ الله في البُكور والصَّباح، وبارك اللهُ لمن يستغلُّ وقْتَ البكور في الصباح.

ووقْتُ الصباح هو أَنسبُ ساعاتِ النهار للعلمِ والتحصيل، وقضاءُ ساعة منه في العلم، أفضُل من قضاءِ ساعاتٍ تاليةٍ بعد ذلك فيه، ولا يجوزُ لصاحبِ العلمِ أنْ يضيِّعَ أفضلَ ساعاتِ يومه بالنسبة للعلمِ والفهمِ، والاستيعاب والإبداع والاستنباط، وأنْ يمضيها في غفلة أو نوم.

وقت الصباح وغاز الأوزون

واستغلالُ وقتِ الصباح، وتوظيفُه للعلم والفهم هو الأنفعُ لصحةِ الإنسان وبدنهِ وحواسّه، ولمشاعره وأحاسيسه، فجميلٌ جداً أنْ يشهدَ صاحبُ العلم ميلادَ النهار الجديد، وأنْ يستمتعَ بمنظرِ السماء قبيلَ شروق الشمس، وأنْ يرى لحظاتِ طلوعِ الشمس، وأنْ يشمَّ نسيمَ الصباح، ويستنشقَه، ويُدخلَه إلى رئتيه وصدره.

وقررَ العلماءُ الفلكيون أنَّ «غاز الأوزون» ينتشرُ علىْ وجْهِ الأرض عند الصباح، ويكونُ ملامِساً لسطحها قبيلَ شروق الشمس، فإذا ما طلعت الشمسُ تبخَّرَ هذا الغاز، لأنه يتبددُ ويتبخرُ مع حرارة الشمس.

وغازُ «الأوزون» ضروريٌّ لجسم الإنسان وحواسِّه، ولصدره ورئتيه، فمن كان مستيقظاً نشيطاً قبيلَ شروق الشمس أخذَ حاجةَ جسمِه منه، أما مَن كان نائماً، فلن يستفيدَ منه، لأنه عندما يستيقظُ فلن يجدَ منه شيئاً!!

فعلى صاحبِ العلم السعيدِ الموفَّق أنْ يحمدَ اللهَ الذي أَلهمه الاستيقاظَ بعد الفجر، ووفَّقَه للتشبُّع بغاز الأوزون، في الوقت الذي حُرِمَ منه فيه كثيرون آخرون، لأنهم نائمون!!

نموذج لبرنامج مثالي

٥ ـ ونختمُ إِرشاداتنا لصاحبِ العلم حولَ برمجةِ ساعات يومه، بتقديمِ نموذجٍ لبرنامجٍ عمليٍّ لساعاتِ يومه، ليسترشدَ به في وضْعِ برنامجه الخاصِّ به.

هو قدْ لا يلتزمُ به حرفياً، لاختلافِ أَوقاتِ الناس في بعضِ التفاصيل والجزئيات، لكنه يستفيدُ منه ويهتدي به.

يَبدأُ النشاطُ والعملُ عند صاحب العلم قبلَ الفجرِ بساعة.

ساعة التهجد والدعاء في السحر

أ ـ ساعةٌ قبل الفجر: يُصلي فيها التهجدَ ثماني ركعات، يقرأُ فيها جزءاً من القرآن، ويُمكنُ أنْ يقرأَ من المصحف أَثناءَ الصلاة لأنها صلاةُ نافلة.

ويُصلّي بعد ذلك الوتر ثلاثَ ركعات، مع القنوت.

ثم يستغفرُ اللهَ قائلاً: أستغفرُ اللهَ العظيم. مائة مرة.

ثم يُكثرُ من التضرع والدعاء، ليَنطبقَ عليه قولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٦ ـ ١٧].

ولْيجعلْ صاحبُ العلم هذه الساعةَ للتربيةِ والتزكية، والإقبالِ على الله ومناجاته، وطلبِ الحاجات منه، ولْيشهدْ صاحبُ العلم في هذه الساعةِ لحظاتِ «تَجَلّي» الله على عباده تجلّياً يليقُ بعظمته، فيستجيب دعاءَهم، ويقضي حاجاتهم، ويحل مشكلاتِهم.

ولا يَجوزُ أنْ تَضيعَ هذه الساعةُ الإيمانية المباركة على صاحبِ العلم، ولْيجعلْها «فقرةً» أساسيةً في برنامجه اليومي.

وظيفة وأوراد ما بعد الفجر

ب ـ صلاةُ الفجر: يحرصُ صاحبُ العلم أنْ يكونَ في أقربِ مسجدٍ إليه مع أَذانِ الفجر، فما أنْ ينتهيَ أَذانُ الفجر حتى يبدأَ هو بصلاة السُّنَّة، ثم يجلسُ في مصلّاه، يقرأُ القرآن، لحين إقامةِ الصلاة.

ويبقى في مصلّاه بعد صلاةِ الفجر لأذكارِ الصلاة المسنونة من استغفارِ وتسبيحِ وتحميد وتكبير وتهليل، ثم يُكملُ «وِرْدَه»

القـرآنـي، إنْ لـم يكـنْ أَكملـه قبـل إقـامـةِ الصـلاة، ثـم يقـرأُ «المأثورات» من الأذكار والدعوات، المأثورةِ عن رسول الله ﷺ.

ثم يغادرُ المسجدَ إلى بيته، ولا مانعَ أنْ يكونَ قبلَ شروق الشمس. فإنْ أرادَ البقاءَ في المسجد إلى ما بعد الشروق، فهذا جيّد.

ما بعد الشروق للعلم لا للنوم

جـ ـ يستغل الوقْتَ من بعد صلاة الفجر إلى ذهابه لعمله أَو دراسته في «التحصيلِ العلمي»، فهذا هو وقْتُ النشاطِ الذهنيِّ والفكريّ والشعوريّ والنفسي والبدني.

فإنْ أَرادَ أنْ يساعدَ كيانهَ على الانتباهِ والتفاعل، بشربِ فنجانٍ من القهوة، فهذا أَفضل.

ولْيقدِّمْ في هذا الوقت الثمينِ المبارك، المسائلَ العلميةَ التي تحتاجُ إلى فقهٍ وفهم، وفطنةٍ وذكاء، واجتهادٍ واستنباط.

وكلَّما طالتْ هذه الفترةُ العلمية المباركة، كلما كان هذا أنفعَ لصاحبِ العلم.

ولْيحرصْ على صلاةِ الضحى، بعد شروقِ الشمس بنصفِ ساعة، ويُصلي أربعَ ركعات على الأقل ـ وصلاةُ الضحى من ركعتيْن إلى ثماني ركعات، وتبدأُ من ما بعدَ شروقِ الشمس بثلثِ ساعة، إلى ما قبلَ صلاة الظهر بثلث ساعة ـ.

ولْيحرصْ على تناولِ فُطوره مبكراً في هذا الوقت.

فترة العمل أو الدراسة

د ـ الفترة من بعد الضحى إلى ما بعد الظهر، هي فترةُ عمل أو دراسةٍ لصاحبِ العلم، يَقضيها في الوظيفةِ إنْ كان موظفاً، أو في العملِ إنْ كان عاملاً، أَو في التدريس إن كان مدرِّساً، أو في الدراسة إنْ كانَ طالباً في مدرسةٍ أو كليةٍ أو جامعة.

ويطلبُ الإسلامُ منه أنْ يقومَ بعمله ووظيفتِه ودراستِه على أَتمِّ وجه، لأنَّ إتقانَ العمل وتجويدَه والإحسانَ فيه واجبٌ من أَوجبِ الواجبات.

الحرص على القيلولة مهما قلت

هـ ـ يحرصُ على أنْ «يَقيل» ولو لفترةٍ قصيرة، فإنَّ القيلولةَ ضروريةٌ لصاحبِ البرنامج العمليِّ المدروسِ الهادف، لأنه قد استيقظَ قبلَ الفجرِ بساعة، ولم ينمْ بعدها.

إن استطاعَ أن ينامَ ساعةً بعد الظهر فهذا أفضل، وإنْ لم يجدْ ساعةً للقيلولة، فليرضَ بأقلَّ منها، ولو كانت ربعَ ساعة. فغفوةُ ربعِ ساعة ـ أو أقل ـ تُعيدُ للجسم نشاطَه، وللدماغِ حيويتَه، فليَحرصْ صاحبُ العلم على هذه الغفوةِ قبل العصر مهما قَلَّتْ. ولو كانتْ غفوةً على مكتبه!!.

ما بعد العصر للدعوة

و ـ يحرصُ على أنْ يصليَ العصرَ في المسجد، ولا يَجوزُ أنْ تمتدَّ قيلولتُه إلى ما بعدَ صلاة العصر، فلا خيرَ في عملٍ يُلهي عن الصلاة.

ويُنصحُ صاحبُ العلمِ أنْ يجعلَ الوقتَ ما بين صلاةِ العصر وصلاة المغرب للدعوة، وأنْ يضعَ له في ذلك برنامجاً مدروساً لئلا يُضيعَ شيئاً من هذا الوقت.

وطالَبْنا صاحبَ العلم أنْ يخصصَ هذه الفترةَ للدعوةِ والزيارات والواجبات الاجتماعية والإرشادية، لأنَّ للمسلمين الآخرين نصيباً من وقتِ وجهدِ وعلمِ صاحبِ العلم. إذ لا يجوزُ لصاحبِ العلم أنْ يعتزلَ المسلمين، وأنْ يعتكفَ في بيته مع العلمِ والبحث والتحصيل، فالإسلامُ أَوجبَ عليه أنْ ينشرَ علْمَه، وأنْ يعلِّمَ الآخرين، وأنْ يأمرَ بالمعروف وينهى عن المنكر، وأنْ ينصحَ المسلمين ويرشدَهم، وأنْ يتصلَ بهم ويدعوهم، وأنْ يزورَهم في مناسباتهم الاجتماعية المختلفة، في الأفراحِ والأتراح، وفي زيارةِ المرضى، ومساعدةِ المحتاجين.

ولْيخصصْ جزءاً من هذا الوقتِ بين العصر والمغرب في بعض الأيام للجلوسِ مع إخوانه وأصفيائه، جلسةً علمية يتدارسون فيها موضوعاتٍ أو مسائل علمية، أَو يتابعون فيها

الدراسةَ في موضوع علمي معين، كالعقيدةِ أو التفسيرِ أو الحديث أو الفقه أو غير ذلك.

ويجلسُ مع هؤلاء ـ أو مع آخرين ـ جلسةً أخرى في يوم آخر، جلسةً تربوية، يتناصحون فيها، ويتواصَوْن على التزكيةَ والتربية والصفاء والنقاء.

ما بعد المغرب في المسجد

ز ـ الوقت ما بين المغرب والعشاء قصير، ويُنصحُ صاحبُ العلم بقضائِه في المسجد، ويُبرمجُ هذا الوقت ليستفيدَ منه، فإمّا أنْ يحضرَ درساً علمياً دورياً في المسجد لأحدِ العلماء، وإمّا أنْ يُلقيَ هو درساً في المسجد، وإمّا أنْ يجلسَ مع إخوةٍ آخرين يُعلِّمُهم الترتيل، ويُحفِّظهم القرآن، أو يتدارسُ معهم معاني بعض الآيات القرآنية، أو يقرأُ معهم أحاديثَ لرسول الله ﷺ.

ما بعد العشاء في العلم

ح ـ الوقت ما بعد صلاة العشاء إلى ذهابه للنوم يخصصُه لمتابعةِ تحصيله العلمي، ويبرمجُه برمجةً علمية موضوعية، فإمّا أنْ يتابعَ ما بدأه في الصباحِ، وإمّا أنْ يكون مع موضوعٍ علمي جديد.

وليحذرْ أنْ يضيعَ هذا الوقتَ في مالا فائدة منه، من زياراتٍ لاهية عابثة، يَقضيها مع فارغين لا يَعرفون ماذا يفعلون، أو متابعةِ

برامج التلفزيون من تمثيلياتٍ أو مسرحيات، تسرقُ وقتَه، أَو تضيِّعُ حسناته.

صلاة قيام ثم محاسبة قبل النوم

ط ـ قبلَ موعدِ نومه بنصفِ ساعة، يتوقفُ صاحبُ العلم عن الدراسة، ويتوضأ، ويصلّي أربعَ ركعاتٍ صلاةَ القيام، ثم يذهبُ إلى فراشه، ويستعرضُ شريطَ يومه، منذ استيقاظِه قبلَ الفجر ولغايةِ هذه الساعة، ويَنظرُ أين أَصاب وأَجاد، وأينَ خالف وأخطأ.

ولْيحاسبْ نفسَه على ساعاتِ نهاره، فإنْ وجدَ خيراً ـ وسوف يجدُ منه الكثير ـ فلْيحمد اللهَ على ذلك، ويسأَلْه مزيداً من التوفيقِ والسداد، وإنْ وجدَ خطأً وذنباً ـ وسيجدُ من ذلك القليل ـ فلْيستغفرِ اللهَ منه، ولْيجددْ توبتَه وندمه.

وقبلَ أنْ يغفو يستغفرُ اللهَ مائةَ مرة قائلاً: «أستغفر الله العظيم».

وبذلك يكونُ قد نظفَ ملَفَّه اليومي، وأزالَ ما علقَ به من أخطاءٍ وذنوب، وعاهدَ اللهَ على التوبةِ والإحسان في اليوم التالي.

النوم المبكر خمس ساعات على الأقل

ى ـ يحرصُ على أنْ ينامَ مبكراً خمسَ ساعات على الأقل، فإن كانَ سوفَ يستيقظُ الساعةَ الثالثة ـ قبلَ الفجر بساعة ـ فلا بدَّ

أنْ ينامَ الساعةَ العاشرة، ليأخذَ جسمُه حاجتَه من النوم.

وقد ذكَرْنا سابقاً أنَّ نومَ ساعاتٍ من الليل أفضلُ من نومِ مضاعفاتِها من ساعاتِ النهار.

بهذا البرنامج ـ الذي قد يغيرُ فيه صاحبُ العلم قليلاً بما يتفقُ مع عمله ووضعِه ـ يكون قد استفادَ من ساعاتِ يومه، وأحسنَ برمجتَها، ووضعَ فقرةً للنوم وللصلاة وللذكر وللعمل وللعلم وللدعوة وللزيارة، وأَعطى كلَّ ذي حق حقَّه.

أين هذا التخطيطُ المدروسُ والبرنامجُ الهادف من طوابيرِ الفارغين اللاهين العابثين، الذين يُمضون السنين في عبثٍ وفراغٍ وضياع، وهم على أَعمارهم مُحاسَبون؟؟!!.

* * *

مع صاحب العلم في صحته البدنية والنفسية

لا بدَّ أنْ يهتمَّ صاحبُ العلم بصحتِه البدنيةِ والنفسية، حتى يقومَ بواجبهِ العلميِّ والعبادي والدعوي على أتمِّ وجه.

إننا نعلمُ أنَّ كيانَ الإنسان مكوَّنٌ من الجسمِ والعقل والروح، وأنَّ الجسمَ هو الوعاءُ الذي يضمُّ العقلَ والروح.

وجسمُ الإنسان متكاملٌ متناسق، مكوَّنٌ من مجموعةٍ من الأجهزة المختلفة، وهذه الأجهزةُ تتكاملُ في وظائفها، وتتداخِلُ في ارتباطاتِها.

وإذا كان جسمُ الإنسانِ سليماً تمكنَ من أداءِ وظيفته، ولذلك لا بدَّ لصاحب العلم أنْ يحافظَ على أجهزةِ جسمه المختلفة، وأنْ يَقيها الأخطارَ والأمراضَ والآفات، وأنْ لا ينتظرَ حتى تنهكَها الأمراض، وتُعطلَها وتوقفَ عملَها، فمن المقرر أنَّ: درهمَ وقاية خيرٌ من قنطارِ علاج.

لا بدَّ لصاحبِ العلم أنْ يتعرفَ على نفسه، بأنْ يتعرفَ على أجهزةِ جسمه المختلفة، التي وهبها الله له، ما هي تفاصيلُ أعضاءِ كلِّ جهاز، وكيف يعملُ كلُّ جهاز، وما هي الأخطارُ التي تحدقُ

بكلِّ جهاز، وكيف يتلافى تلكَ الأخطار، وكيف يحافظُ على سلامةِ وحسن أَداءِ ذلك الجهاز.

أجهزة الجسم السبعة:

كثيرةٌ هي الكتبُ العلميةُ الطبية التي تتحدثُ عن أجهزةِ الجسم المختلفة، وتُبينُ أجزاءَ كلِّ جهاز منها، وكيف يُؤدي هذا الجهازُ عملَه.

وفي الآونةِ الأخيرة قامَ بعضُ الأطباءِ الإسلاميين المختصين ـ العارفين بتركيبِ الجسمِ الإنساني وأجهزتِه المختلفة ـ بتأليفِ كتبِ علميةٍ طبية إسلامية، تَعرضُ هذه المعلومات من وجهةِ نظرِ إيمانيةٍ إسلامية، وتُرينا آياتِ الله فيها، وتَدعونا إلى الإحساسِ بنعمِ الله، وإلى ذكره وشكره، وإلى زيادةِ الإيمان به.

وفي مقدمةِ هؤلاء الأطباء الإسلاميين، الدكتور محمد علي البار، والدكتور حسان شمسي باشا، والدكتور حامد أحمد حامد، والدكتور عبد الرزاق الكيلاني.

وللتعرفِ على أجهزةِ الجسم السبعة، تمهيداً لوقايتها من الأمراض، أُشيرُ إلى كتابِ الدكتور عبد الرزاق الكيلاني: «الوقاية خير من العلاج»، الذي طَبعتْه له دارُ القلم بدمشق عام ١٤١٦ ـ ١٩٩٥.

وأَجهزةُ الجسم السبعة التي عرضَها الدكتور الكيلاني، وبيَّن كيفيةَ وقايةِ كلٍّ منها هي:

١ ـ **الجهازُ الحركي**: ويتألف الجهازُ الحركي في الإنسان من: العظام، والمفاصل، والعضلات، وهذا الجهازُ مغطّى بالجلد.

٢ ـ **الجهاز العصبي**: هذا الجهازُ هو «المشرفُ العام» على أعمال جسمِ الإنسان، سواء كانت هذه الأعمالُ إراديةً كحركاتِ الأطراف، أو كانت لا إراديةً كضرباتِ القلب.

ويتألفُ الجهازُ العصبي من: المخ، والمخيخ، والساقِ المُخِّيَّة، والحَدَبَة الحَلْقِيّة، والبَصَلَة السّيسائِيّة، والنخاعِ الشوكي، والعُقَدِ العصبية، والأعصاب.

ومما يتصلُ بالجهاز العصبي الحواسُّ الخمسة: حاسةُ السمع، وحاسةُ البصر، وحاسةُ الشم، وحاسةُ الذوق، وحاسة اللمس.

وهذه الحواسُّ الخمسُ هي المنافذُ التي يتصلُ بها الجهازُ العصبي الداخلي، مع المحيطِ الخارجي لجسم الإنسان.

٣ ـ **جهاز الدوران**: يتألفُ جهازُ الدوران من: القلب، والشرايين، والأوردة، والأوعية الشعرية، والدم.

وهذا الجهازُ هو وزارتا الدفاع والمواصلات معاً في دولةِ جسم الإنسان، وتحتَ تصرُّفه أكثرُ من مائةٍ وستين ألف كيلو متر من الأوعية الدموية، يذهبُ فيها الغذاءُ والأوكسيجين إلى كلِّ

خلايا الجسم، وتعودُ فيها الفضلات.

٤ ـ **الجهاز التنفسي**: يتكوَّن الجهازُ التنفسي من: الأنف، والبلعوم، والحنجرة، والقصبة الهوائية، والرئتين.

وهذا الجهازُ هو جهازُ الإسعاف والإنعاش، الذي يمدُّ الجسمَ بما يحتاجه من الأوكسيجين، ولا يستطيع العيشَ بدونه أكثرَ من دقائق معدودات.

٥ ـ **الجهازُ الهضمي**: يبدأ هذا الجهازُ بالفم، وينتهي بالشَّرْج، مروراً بالبلعوم، والمريء، والمعدة، والأمعاء الدقيقة، والأمعاء الغليظة، ويُلحقُ به بعضُ الغدد، والكبد، والبنكرياس.

ويمثلُ هذا الجهازُ وزارتي الصناعة والتموين لجسم الإنسان.

٦ ـ **الجهازُ البولي**: يتألفُ الجهازُ البولي في الجسم من: الكليتين، والحالبين، والمثانة، والإحليل.

هو جهازُ تنظيفِ الجسم من الفَضَلات، وهو لا يقلُّ أهميةً عن أجهزةِ الجسم الأخرى، لأنَّ أجهزةَ الجسم تختنقُ بالفضلات إذا تعطلَ هذ الجهاز.

٧ ـ **الجهازُ التناسلي**: يتكوَّنُ الجهازُ التناسلي عند الرجل من: الخِصيتين، والبربخ، والأسهر ـ القناة الدافقة ـ والحويصليْن المنويين، وغدةِ الموثَة، والإحليل الذي يشتركُ بين جهازَي البول والتناسل.

ويتكوَّنُ الجهازُ التناسلي عند المرأة من: الرحم، والبوقين الأيمن والأيسر، والمبيضين الأيمن والأيسر، وعنق الرحم، والمهبل.

مهمةُ هذا الجهاز هي حفظُ النسلِ البشري، ولولاه لانقرضَ الناسُ على وجه الأرض.

كتب تتحدث عن الأجهزة ووقايتها

يجبُ على صاحبِ العلم أنْ يتعرفَ على أعضاءِ كلِّ جهازٍ من هذه الأجهزة، وأنْ يتعرفَ على طبيعةِ عمل ذلك الجهاز، وعلى التنسيقِ بينَه وبين الأجهزة الأُخرى، والتكاملِ بين عملها كلِّها لخدمة هذا الإنسان، ليزدادَ إيماناً بالله وذِكْراً له، وشكراً له على ما أَنعمَ به عليه.

كما يجبُ على صاحبِ العلم أنْ يتعرفَ على الأمراضِ والأخطارِ والآفات التي تهددُ كلَّ جهاز، وأَثَرِها عليه، وأنْ يتعرفَ على سبلِ الوقاية منها قبلَ أنْ تقع. من بابِ «درهم وقاية خير من قنطار علاج».

وننصحُ صاحبَ العلم بالاطلاعِ الواعي على كتابيْن أَساسيين في هذا الموضوع:

الأول: رحلةُ الإيمان في جسم الإنسان. للدكتور حامد أحمد

حامد. وقد صدرتْ طبعتُه الأولى عن دار القلم بدمشق عام ١٤١١ ـ ١٩٩١

الثاني: الوقايةُ خير من العلاج. للدكتور عبد الرزاق الكيلاني. وقد صدرتْ طبعتُه الأولى عن دار القلم بدمشق عام ١٤١٦ ـ ١٩٩٥.

هذه المعرفةُ النظريةُ التي يحققُها صاحب العلم هي تطبيقٌ لقوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١].

العقل السليم في الجسم السليم

وهذه المعرفةُ تجعلُ صاحبَ العلم حريصاً على المحافظةِ على «صحة» جسمه، ووقايتِه من الآفات والأمراض.

إنَّ الاهتمامَ بصحةِ جسمِ صاحب العلم واجب، لأنَّ جسمه ـ بأجهزته السبعة ـ هو الأداةُ والوسيلةُ التي يحققُ بها وظيفتَه، ويؤدي رسالتَه، به يقومُ بالشعائِر التعبدية، وبه يحققُ التحصيلَ العلمي، وبه يُنتج الفكرَ والإبداع، وبه يمارسُ الدعوة، وبه يستمتعُ بالحياة.

كيف يعبدُ صاحبُ العلم ربَّه بجسمٍ مريض؟ وكيف يُفكرُ بعقلٍ ضعيف؟ وكيفَ يدعو بأجهزةٍ معطلة؟

إنَّ المؤمنَ القويَّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وكان رسولُ الله ﷺ كثيراً ما يستعيذُ بالله من العجز والكسل، فيقول: «اللهمّ إِني أعوذُ بك من الهمِّ والحَزَن، وأَعوذُ بك من العجزِ والكسل، وأعوذُ بك من الجبن والبخل، وأَعوذُ بك من غلبةِ الدَّيْن وقهرِ الرجال..».

وصدقَ مَن قال: العَقْل السليم في الجسمِ السليم.

وصايا طبية للصحة البدنية

وحتى يُحافظ صاحبُ العلم على صحةِ جسمه نقدمُ له هذه النصائحَ والوصايا، بشكلٍ موجز، ونَدْعوه إلى قراءتها في الكتابِ المجملِ المفيد: «وصايا طبيب» للدكتور حَسّان شمسي باشا، الذي صدرتْ طبعتُه الأُولى عن دار القلم بدمشق عام ١٤١٥ - ١٩٩٥.

١ - تَناوَلْ بضعَ تَمْرات في الصباح: التمرُ منجمٌ غنيٌّ بالمعادنِ المختلفة، وعندما تتناولُ بضع تمراتٍ في الصباح، تحصلُ على فائدةٍ عظيمة. ولمعرفةِ أهميةِ التمر ننصحُك بقراءةِ كتاب «الأسودان: التمر والماء» للدكتور حسان شمسي باشا.

٢ - إبدأ نهارَك بملعقةٍ من العسل: العسلُ شفاءٌ للناس بنصِّ القرآن: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].

وعندما تبدأُ نهارَكَ بملعقةِ عسل، وتُتبعُها ببضعِ حباتٍ من التمر، يتشربُ جسمُك المعادنَ الموجودةَ فيهما.

٣ ـ إحرصْ على أنْ تأكلَ من الحَبَّة السوداء ـ حبة البركة ـ: ولو مَزَجْتَ شيئاً من العسلِ الصافي مع شيءٍ من الحبةِ السوداء المطحونة، وأخذْتَ من ذلك ملعقتيْن صباحاً، أَو مشروباً ساخناً لاستفدتَ فائدةً عظيمة.

ومن أجَودِ وأنفعِ الطعام أنْ تضعَ حبةَ البركةِ على صحنٍ من اللبن، ثم تغمَره بزيتِ الزيتون.

٤ ـ عليكَ بالإكثارِ من استعمالِ زيت الزيتون في الطعام، وهو أَجودُ أَنواعِ الزيوت، وليستْ له أيةُ أَضرارٍ جانبية، وهو مفيدٌ جداً لجسمك.

٥ ـ لا تنْسَ أنْ تأخذَ كأساً من اللبن على الأقلِّ كلَّ يوم، سواء كنتَ صحيحاً أو مريضاً. لِغِناه بالمعادن، ولا يوجدُ غذاءٌ آخر يجزىءُ عنه، أو يحلُّ محلَّه.

٦ ـ إحرصُ على تناولِ السمك، وليكنْ وجبةَ غذاءٍ لك أسبوعياً على الأقل. لأهميته القُصوى لجسمك.

٧ ـ لا تُكثرْ من أكلِ اللحوم الحمراء، ولا تتوقَّفْ عن أكلها، والتوسطُ والاعتدالُ في ذلك مطلوب. واحْرصْ على أنْ تكونَ هذه اللحومُ الحمراءُ خالصةً من الشحومِ والدهون.

٨ ـ لا تُكثرْ من شربِ القهوة والشاي، حتى لا يتحولَ ذلك إلى إدمان، والإفراطُ في شرب القهوة والشاي مُضِرٌّ لك. أَما الاعتدالُ في ذلك فهو مفيد.

وحتى يكونَ تناولُك للقهوة والشاي معتدلاً ننصحُك بما يلي:

أ ـ من المفيدِ تناولُك فنجاناً من القهوةِ الحلوة عندَ الصباح.

ب ـ لا مانعَ أنْ تأخذَ فنجانيْن من القهوةِ السادة بعد العصر.

ج ـ جيدٌ تناولُك فنجاناً من الشاي عند الصباح وفنجاناً آخرَ بعد العصر.

د ـ لا تتناول الشايَ أثناءَ الطعام، لأنه يُنقصُ امتصاصَ الحديد الذي في الطعام. وتَناول الشايَ بعد الطعام بساعةٍ أو ساعتين.

ج ـ لا تَشرب الشايَ أو القهوة بعدَ المغرب، حتى لا تُصابَ بالأرق عند النوم.

٩ ـ أَكثرْ من تناولِ الخضارِ والفواكهِ الطازجة في طعامكِ وحاوِلْ أنْ تستغنيَ عن الأطعمةِ المعلَّبة والمحفوظة.

١٠ ـ أَكثرْ من تناولِ أليافِ الطعام، والتركيزِ على المأكولات ذاتِ الأَلياف كالسبانخ والفاصولياء والزهرة والملفوف والجزر والتمر.

١١ ـ حاوِلْ أنْ تأكلَ حبةَ تفاحٍ طازجة في الصباح، نظراً

لفائدة التفاح العالية، وغِناهُ بالمعادن والفيتامينات.

١٢ ـ الجزرُ من أكثرِ الخضروات فائدةً لك، لغناه بالبوتاسيوم والكاروتين، فحاوِلْ أنْ تأكلَ حبتين من الجزر يومياً.

١٣ ـ إلتزمْ بالسُّنَّة عند تناوُلِك الطعام، فلا تأكلْ إلاَّ عندما تشعرُ بالجوع، وعندما تتناولُ الطعام لا تصلْ إلى مرحلةِ الشبع، وقُمْ عن الطعامِ وما زالتْ حاجتُك إليه موجودة.

وعليكَ بالقاعدةِ الذهبية: نحنُ قومٌ لا نأكلُ حتى نجوع، وإذا أكَلْنا لا نشبع.

١٤ ـ حتى تستفيدَ من وجبةِ الطعام ننصحُك بما يلي:

ـ لا تأكل الطعام وأنتَ متوتِّرُ الأعصاب، لأنَّ هذا مُضِرٌّ جداً.

ـ كُلْ طعامَك باسترخاءٍ وهدوء، واستمتِعْ وتَلَذَّذْ بتناوُله.

ـ إبدأْ وجبةَ الطعام بالسلطة، لتملأَ المعدة، وتشعرَ بالشبع.

ـ لا تَشرب المشروبات الغازية أثناءَ الطعام لأنها تُعيق الهضم، وتَزيدُ في الوزن، واعلمْ أنَّ الكأسَ الواحدَ من الكوكاكولا يَحتوي على خمسِ ملاعق من السّكّر.

١٥ ـ إحرصْ على وجبةِ الإفطار في الصباح، وخُذها باكراً، وتَعَوَّدْ على ذلك، لأهميتِها الضرورية لك، وتَخَلَّ عن وجبةِ العشاء، فلا داعي لها. ولا تأكلْ شيئاً قبلَ النوم بساعتين على الأقل.

١٦ ـ تخلّصْ من السُّمْنة، فإنها تزعجُك وتُعيقُك وتؤذيك، وتؤثِّرُ على مستقبلك العلمي والدعوي والفكري، وتُصيبُ جسمَك بالعديد من الأمراض، كارتفاعِ ضغط الدم، والسكر، وضيقِ النفس، والذبحة الصدرية، والدَهون والكولسترول في الدم، ولْيكنْ وزنُك دائماً حولَ الوزن المثالي، والوزنُ المثاليُّ هو أنْ تطرحَ من طولك بالسنتمترات رقمَ مائة. فمنْ كانَ طولُه مائةً وسبعين سنتمتراً مثلاً، كان وزنُه المثالي سبعين كيلو غراماً. وقد يُسامحُ في ١٠٪ زيادة على ذلك الوزن المثالي، أَما أكثر من ذلك فلا.

١٧ ـ قَلِّلْ من الحلويات، وحاوِلْ تجنُّبَها، لضررِها المستقبليِّ عليك.

١٨ ـ دَعْ وجباتِ الطعام المعَدَّة على الطريقةِ الأمريكية والغربية، مثل الهامبورغر، لأنه مشبَعٌ بالدهونِ المضرّة.

١٩ ـ إبتعدْ عن الدهونِ الحيوانية، الموجودة في الشحوم وغيرها، لضررِها الأكيدِ عليك.

٢٠ ـ داوِمْ على الرياضةِ لأهميتها القُصوى لك، ومارسْ بعضَ التمارين الرياضية، وأَهمُّ رياضةٍ لك هي المشيُ السريع باعتدال، لمدةِ ساعة أو نصفِ ساعة على الأقل.

٢١ ـ إبتعدْ عن التدخين تماماً، ولا تُدخِّنْ أَبداً، فالضررُ ناتجٌ

عن التدخين حتماً، وهو يَعني الانتحارَ البطيء والموتَ المحقَّق، والراجحُ أنَّ الدخان حرام.

٢٢ ـ أَكثِرْ من شربِ الماءِ العَذْبِ لحاجةِ الجسم الماسَّةِ إليه، ولا تخشَ من سلبياتِ ذلك.

٢٣ ـ نَمْ باكراً، واستيقِظْ باكراً، واجعَلْ معظمَ ساعاتِ نومك في الليل، بحيثُ لا تنام في الليل أقلَّ من خمسِ ساعات، ولا تَنَمْ بعدَ صلاة الفجر، وتناوَلْ فطورَك اليوميَّ باكراً.

٢٤ ـ إنْ أُصبتَ بالأَرَق أحياناً فلا تستعمل الحبوبَ المنومة لضررِها عليك، وحاوِلْ أنْ تتعرفَ على أَسبابِ الأرق، لتتخلَّصَ منه، وأكثِرْ من ذكْرِ الله قبيلَ النوم لئلا تُصابَ بالأرق.

٢٥ ـ لا تُكثِرْ من استعمالِ الملحِ على الطعام لضررِهِ عليك في المستقبل، ولا تكثِرْ من تناولِ الأطعمة الحارَّة، التي يكثُرُ فيها الفلفلُ الحارُّ والفلفل الأسود والتوابل الحارقة.

٢٦ ـ لا تُكثِرْ من تناولِ الأطعمة المقلِيّة والسندويتشات، وتناوَل الطعامَ الذي فيه الشوربات والمرق. واطبخ اللحومَ طَبخاً بدلَ أنْ تقليَها أَو تشويها.

٢٧ ـ إحرِصْ على إجراءِ الفحوصاتِ الدوريّة باستمرار، حتى لا تُفاجأَ بالمرض، مثل فحصِ السكري، وفحصِ ضغطِ الدم، وفحصِ الكوليسترول، وفحصِ التنفس، وفحصِ القلب، وغيرِ ذلك.

٢٨ ـ عندما تتعبُ استَرِح، وأَوقِفْ نشاطَك، وعليك بالاسترخاء، حتى لا تُصابَ بالإجهاد، أو بالتوترِ والانهيار.

٢٩ ـ إبتعدْ عن المحرَّمات والمعاصي، ولا تستعملْ حواسَّك في المعصية، حتى لا يُعطلَها الله، ويَحرمَك منها، واستعملْ أجهزةَ جسمكِ المختلفة في الطاعة، ليحفظَها اللهُ لك، وتجدَها عندما تَشيخُ وتَكبر.

٣٠ ـ وحتى تُبقي على شبابك وتتغلبْ على الشيخوخة عندما يتقدمُ بك العمر، فعليكَ باتباع ما يلي ـ إضافة إلى الوصايا السابقة ـ:

ـ لا تُكثرْ من الملح والسّكّر والدهون والفلفل في الطعام.

ـ كُل السمك، فهو أَفضلُ لك من اللحمِ الأحمر.

ـ لا تَغْلِ الخضرواتِ أكثرَ من اللازم لئلا تفقدَ قيمتَها الغذائية.

ـ إشربْ ما استطعتَ من الماء، فالجسمُ يَحتاجُ إلى لترٍ ونصف من الماءِ على الأقل.

ـ مارِس الرياضةَ لِتُبقي على قوةِ البدن، وأَفضلُها هو المشي.

ـ صادقِ الشباب، واتصلْ بالناس، لتشعرَ بالسعادة.

حافِظْ على ابتسامتك. وإيّاك والعُبوسَ والتجهُّم، ولا تُقطبْ جبينَك.

هذه وصايا ونصائحُ نقدمُها لصاحب العلم، ونرجوه أَن يلتزمَ بها ما أَمكن، وذلك ليحافظَ على صحةِ جسمه، وليستطيعَ أداءَ مهمته.

وهذه الوصايا أَخذناها من كتاب «وصايا طبيب» للدكتور حسان شمسي باشا، ونَدعو صاحبَ العلم إِلى اقتنائِه وقراءتِه، والالتزامِ بما فيه!!

الصحة النفسيـة لصاحب العلم:

الصحةُ النفسيةُ لصاحبِ العلم مهمةٌ وضرورية، مثلُها مثلُ الصحة البدنية، إنْ لم تكنْ أكثرَ منها أهمية، لأنَّ إصابتَه بالأمراضِ النفسية كالقلق والإحباط والاكتئاب، سبيلٌ إِلى إصابته بالأمراضِ الجسمية، كقرحةِ المعدة، وارتفاعِ ضغط الدم، والسكري.

وتحدثتْ كتبٌ كثيرةٌ عن السبيلِ القويم إلى تمتعِ الإنسان بالصحةِ النفسية، وتخلُّصِه من الأمراضِ النفسية والعصبية، ومن أهمِّ هذه الكتب، مؤلفاتُ الأمريكي «ديل كارنيجي»، المتخصصِ في علاج الآفات والأمراض والمشكلات النفسية والاجتماعية والحياتية ـ على الطريقة الأمريكية ـ.

وقد أَلَّفَ «كارنيجي» مجموعةً من الكتب النافعة، المترجمةِ إلى اللغة العربية، ونصحُ صاحبَ العلم باقتنائِها والقراءة فيها، والاستفادة منها، وأخذِ النافع الذي فيها ـ وهو كثير ـ.

هذه الكتب هي:

١ ـ دَع القلق، وابدأ الحياة.

٢ ـ كيف تكسبُ الأصدقاء.

٣ ـ كيف تؤثرُ في الناس.

٤ ـ فنُّ الخطابة.

وأُسجلُ من كتابه الأول «دع القلق وابدأ الحياة» أهمَّ القواعدِ التي قررها «كارينجي»، ودَعا القارىءَ إلى مراعاتِها والالتزام بها، وأَحيلُ على تفاصيلِ تلك القواعد وغيرِها في الكتاب المذكور. وعلى صاحبِ العلم الالتزامُ بتلك القواعد للتخلصِ من القلق والاكتئاب، والإجهاد والإحباط، والتوترِ والغضب والانفعال.

قواعد أساسية للصحة النفسية

أهمُّ ما نقدمُه من هذه القواعد هو:

١ ـ عِشْ دقائقَ يومك وساعاته، واستمتِعْ بذلك، ولا يؤرِقْك الماضي، ولا تقلقْ على المستقبل، وسلِّمْ كلَّ أُمورك إلى الله.

٢ ـ لا تَدَعْ أيةَ مشكلةٍ تَقضي على أَعصابك، مهما عَظُمت، وأَحسنِ التعاملَ معها واستيعابَها، وفكِّرْ بهدوءٍ في حلِّها والتغلبِ عليها.

٣ ـ تَذَكَّر الثمن الباهظَ الذي ستدفعُه من صحتك، عندما تكون أَسيرَ القلق والتوتر والانفعال، لتتخلّى عن ذلك.

٤ ـ عندما تقلقُ وتتوترُ بسببِ مشكلةٍ ما، أَمْسِك ورقةً وقلماً، وسَجِّلْ عليها الجوابَ على الأسئلةِ التالية: ما الذي يقلِقُني؟ وماذا أَستطيعُ أن أفعلَ بشأنه؟ ومتى أَفعلَ ذلك؟ وكيف؟.

٥ ـ إحتفظْ بمذكرةٍ خاصة، وسجِّلْ فيها في آخرِ كلِّ أُسبوعٍ: الأخطاءَ التي ارتكبْتَها خلالَ الأسبوعِ؟ وأَسبابَها؟ وكيفَ تصرفتَ بشأنها؟ وكيفَ استفدتَ منها؟ ولم تَعُدْ إِليها؟.

٦ ـ لا تَشُكَّ في أَنك سعيد، ولا تسأَلْ نفسَك إِنْ كنتَ سعيداً أم لا، فأنتَ سعيدٌ حقاً طالما أَنكَ مع الله في الطاعةِ والعبادة والعلم.

٧ ـ عليكَ أنْ تنهمِكَ بالعملِ والعلم، وأن تستمتعَ به، وأنْ تجعلَه مستوعِباً لكلِّ وقتك، عندها لا تشعرُ بالقلق.

٨ ـ إِنْسَ الأُشياءَ الصغيرة، ولا تهتمَّ بالأشياءِ التافهة، ولا تغضَبْ لأَجلِها، وحياتُكَ أثمنُ من أنْ تَقضيها حزيناً قلِقاً، من أجلِ كلمةٍ أو موقفٍ أو تصرُّف. ولا تدَعْ هذه الصغائرَ والتفاهات تهزمُك، وتنكدَ عليك حياتَك.

٩ ـ لا تندمْ على ما فات، وَدعِ التفكيرَ في الماضي، ولا تُزعجْك وتُقلقْك أشياءٌ قمتَ بها أوَ حدثَتْ لك في الماضي، فإنها لن تعود. واستمرَّ في تذكُّرِ هذه العبارة: لا تَبْكِ على اللَّبَن المُراق، ولا تُحاوِلْ أنْ تنشرَ النَّشارةَ مرةً ثانية!

١٠ ـ لا تُعْطِ للأمورِ أهميةً أكثرَ مما تستحق، فلا تقلقْ وتتوترْ بشأن أشياءَ لا قيمةَ لها، واستمرَّ في تذكُّرِ هذه العبارة: لا تَشْتَرِ الصفارةَ بأكثرَ من ثمنها!!

١١ ـ لا تَقْلَقْ بشأنِ المستقبل، وآمِنْ بقضاءِ الله وقَدَرِه، وأَيْقِنْ بحكمةِ الله، وارْضَ بكلِّ ما قَدَّرَهُ اللهُ لك، وتعامَلْ مع الخيرِ بالشكرِ والرضى، ومع الضُّرِّ بالصبرِ والتسليم.

١٢ ـ لا تُشْغِلْ نفسَك وأَعصابَك بالأشياء قبلَ أنْ تفعَلَها، ولا تقلَقْ بها قبلَ حدوثِها، واستمرَّ في تذكُّرِ هذه العبارة: لا تَعْبُرِ الجسْرَ قبلَ أنْ تصِلَه!!

١٣ ـ فَكِّرْ جيداً قبلَ الإقدامِ على الفعل، وَزِنِ الحقائقَ بعنايةٍ قبلَ صنع القرار، وبعدَ ذلك سارِعْ بالتنفيذ مستعيناً بالله، ولا تقلَقْ بشأنِ العواقب.

١٤ ـ عِشْ حياتَك بمرَحٍ وبساطة، وتصرَّفْ بهدوءٍ وطمأنينة، فسوفَ يَسري المرحُ إلى حياتك وأَعمالِك.

١٥ ـ اتَّخِذ القراراتِ التالية في صباحِ كُلِّ يوم، ونَفِّذْها في ساعاتِ النهار:

ـ سأَكونُ سعيداً في هذا اليوم. فالإنسانُ يكونُ سعيداً عندما يقررُ ذلك.

ـ سأُحاولُ اليومَ أنْ أكيِّفَ نفسي مع الأمرِ الواقع، وأنْ أُكيِّفَ

الأشياء وفقَ رغباتي، وسأتعامَلُ مع الناس مِن حولي كما هُم، وليس كما أُريدهم أنا.

- لنْ أَدَعَ الأشياءَ التافهة أنْ تُنغِّصَ عليَّ حياتي، أَو تُفسدَ عليَّ خطَّتي، وسأتجاوزُها إلى ما هو أَوْلى.

- سأُقَوّي اليومَ إرادتي، وأَتعلَّمُ النافعَ المفيد.

- سأَعيشُ برنامجَ يومي وأُنفذُه، وأَحُلُّ مشكلاتِ هذا اليوم، وسأَقومُ بتأجيلِ البحث في مشكلاتِ المستقبل، حتى لا أَقْلَقَ بشأنها.

- لَن أُكثرَ من انتقادِ الآخَرين، والجدالِ معهم، وتكبيرِ أَخطائهم، لأنهم لن يسكتوا، وستتطورُ الخلافات بيني وبينهم، وعلَيَّ تقديمُ النصيحة لهم بالحسنى.

- سأَكونُ طيلةَ هذا اليوم هادئاً في تصرُّفاتي وأَقوالي وحركاتي، وسوفَ أَتعاملُ مع الآخرين ببشاشةٍ وابتسامةٍ وسماحة.

١٦ - ثَمَنُ الانتقامِ من الخصوم مرتفع، تدفَعُه من صحتِك وأعصابِك ومشاعرك، فاترُكْ ذلك، ولا تُحاوِل الاقتصاصَ منهم، لأنك تُؤذي نفسَك أكثرَ مما تؤذيهم.

١٧ - لا تسمحْ لخصومِك بالسيطرةِ على حياتك وأَفكارِك

ومشاعرك، فاتركْهم وأَسقِطْهم من حسابك، ولا تُضيِّعْ دقيقةً في التفكير فيهم.

١٨ ـ إِنْسَ نفسَك، وتخلَّ عن أنانيتك، وصُبَّ اهتمامَك على الآخرين، وقَدِّم الخيرَ لهم، لترتسمَ الابتسامةُ على وجوههم.

١٩ ـ عندما تقدِّمُ الخيرَ للناس، اجعلْه خالصاً لله، ولا تنتظرِ الشكرَ منهم، حتى لا تخسَرَ ثمرةَ ذلك الخير.

٢٠ ـ لا تنزعجْ أو تقلقْ بشأنِ جحودِ الآخرين لك عندما تُحسنُ إليهم، بل توقَّعْ هذا، بدلاً من أنْ تتوقعَ اعترافَهم بجميلكِ، فمعظمُ الناسِ لا يعترفونَ بالجميل ولا يشكرون من أَحسنَ إليهم، بل يقابلونَ الإحسانَ بالإساءة، ويَكفيكَ أنَّ اللهَ هو الذي يَقبلُ عملَك المخلص، ويُثيبُك عليه.

٢١ ـ كُنْ قدوةً لغيرك في الاعترافِ بالجميل، والثناءِ على المحسن، فَمَنْ أَحسنَ إليك فاشكُرْه وادْعُ اللهَ له، ليزدادَ هو في إحسانِك، ويقتديَ بك غيْرُك.

٢٢ ـ لا تُكثِرْ من الشكوى والتَّأَوُّه، وانظُرْ إلى الحياة بتفاؤلٍ وحيوية، وركِّزْ على إيجابياتِ الحياة دون سلبيّاتِها.

٢٣ ـ تَذَكَّرْ نِعَمَ اللهِ عليك، لتشكرَه عليها، وتستمتعَ بها، وركِّزْ على الأشياءِ الإيجابية عندك وعَدِّدْها واجْمَعْها، بدلَ أنْ تجمعَ متاعِبَك، وتتذكَّرَ ما يزعجُك وينغِّصُ عليك.

٢٤ ـ تعرَّفْ على نفسِك وطبيعتِك ومواهبِك وقدراتِك، ووظِّفْها لتستمتعَ بحياتِك، وارْضَ بها، ولا تُقارِنْ نفَسك بغيرك، ولا تتشبَّهْ بغيرِك، ولا تُزعجْ نفسَك بتقليدِ غيرك، واعلمْ أنَّ اللهَ حكيمٌ فيما وهبَ الناس، وأنَّ كلَّ شخصٍ ميَسَّرٌ لما خلقَه اللهُ له، فلا تحسدْ أَحَداً، ولا تُتْعِبْ نفسَك كي تكونَ مثله. وعِشْ حياتَك كما أنت.

٢٥ ـ حاوِلْ تغييرَ السلبياتِ إلى إيجابيات، عندَك وعنْدَ مَنْ حولَك، لتُحسنَ الاستفادةَ منها، وتَذَكَّرْ هذه العبارة: عندما تَجِدُ ليمونَةً حامضة، فاصنَعْ منها شرابَ ليمونٍ حلواً لذيذاً.

٢٦ ـ لا تَنزعجْ أَو تَقلقْ من انتقادِ منافِسيك أَو حاسِديك لك انتقاداً متجنِّياً غير عادل، أَو تهجُّمِهِم عليك، فهم ينفسونَ عليك مواهِبَك ونجاحَك، فاستمرَّ في تحقيقِ النجاح، ولا تهتمَّ بهم، ولا تتوقَّعْ أَنْ يتوقَّفوا عن الظلمِ والتجني، وتذكَّرْ هذه العبارة: لا أَحَدَ يَرْفُسُ كَلْباً ميتاً.

٢٧ ـ إِحرصْ على أَنْ تفعلَ الصحيحَ الصواب، وعند ذلك لا تهتمَّ لسخريةٍ أَو استهزاءٍ أَو انتقادِ الآخرين، فهم سينتقدونَك دائماً، سواء فعلْتَ أَو لم تفعل، فلا تجعل انتقادَهم المتجنّي سبباً في توقُّفِك عن العملِ الصواب.

٢٨ ـ أُنْقُدْ نفسَك بنفسِك، واحتفِظْ بسجِلٍّ عنوانُه: حماقاتٌ ارتكبْتُها. وسَجِّلْ فيه أَخطاءَك، لمعرفتِها وعلاجِها والتخلُّصِ

منها. وابَحثْ عن إخوةٍ مخلِصين ناصحين، واسمَعْ نُصحهم وانتقادهم، والمؤمنُ مرآةُ أخيه.

إرشادات للتخلص من القلق والإجهاد

٢٩ ـ حتى لا تصاب بالقلقِ والتوترِ والإرهاق والإجهاد، التزِمْ في يومِك وعملك بالأمورِ التالية:

ـ عندما تحسُّ أنكَ بدأتَ بالتعب، فعليكَ بالاستراحةِ قبلَ أنْ يسيطرَ عليك التعب.

ـ تعلَّمْ أنْ تسترخي أثناءَ العمل، ولا تمارِسْ عملَك وأَعصابُك مشدودة، وحواسُّك مستوفزة، وجسْمُك مستنفَر، بل مارِسْ عملَك بهدوءٍ وطمأنينة وراحة.

ـ أَنجزْ عملَك أَوَّلاً بأَوَّل، ولا تؤجِّلْ عملَ اليومِ إلى الغد، حتى لا تَكْثُرَ الأعمالُ المؤجَّلَة، فتشعرَ بالإرهاقِ والإجهادِ والقلق.

ـ عندما تواجُهك مشكلة، فكِّرْ فيها جيداً، واتخِذ الحلَّ المناسبَ لها، وسارعْ في تنفيذِه.

ـ رتِّبِ أَولوِيّاتِ عملِك حسبَ أَهميته، وابدأ بالأَهمِّ فالأهم.

ـ تَعوّد النظامَ والترتيبَ في عملِك وبرنامجك، بل ومكتبِك، وأَفرغْ مكتبَك من الأوراق التي تنتهي منها أَوَّلاً بأَوَّل.

ـ أَضِفْ إلى عملك ما يَزيدُ استمتاعَك به، وأَدِّ عملَك وأنتَ

متفاعِلٌ مستمتِع، ولا تكُنْ متأفّفاً ضَجِراً كارِهاً شاكياً. وتحمَّس لعملِك كثيراً.

ـ لا تُحَمِّلْ نفسَك من الأعمال ما لا تُطيق، والتزِمْ بالأعمالِ التي بوسعك، على أنْ ترفعَ مستوى وُسْعِك وعزيمتِك وهمتِك!

تعوّد على التفكير الإيجابي

٣٠ ـ عَوِّدْ نفسَكَ على التفكيرِ الإيجابي، كي تتخلصَ من القلقِ والتوترِ والانفعال، فبعضُ الناس لا يريدُ أنْ يكونَ تفكيرُه إيجابياً ليستريحَ ويهدأ، وإنما يكون تفكيرُه سلبياً.

إنه لا يعرفُ إلاّ تذكُّرَ المصائبِ والمآسي التي مَرَّت به، ولا يفكرُ إلاّ في أخطائِه وإحباطاتِه، ولا يعرفُ إلاّ فشلَه وإخفاقَه، وإذا تكلمَ لا يتكلمُ إلاّ بالشكوى والتضجر والتأفُّفِ واليأس، وإذا تحدثَ عن الناس تكلمَ بمرارةٍ وأسىٰ، وأَخبرَ عن جحودِهم وإيذائهم وحقدِهم وحسدِهم، ينظرُ للحياة نظرةً سوداوية مكتئبةً حزينة.

هذا الإنسانُ صاحبُ التفكيرِ السلبي يَعيشُ مع القلقِ والتوترِ والانفعال والإحباط، ويُصابُ بالعديدِ من الأمراضِ والآفاتِ النفسية والبدنية.

على صاحبِ العلم أنْ يكونَ تفكيرُه إيجابياً بَنّاءً، أنْ يكبِّرَ الإيجابياتِ في حياتِه وحياةِ مَنْ حولَه، وأنْ يتذكَّرها، وأنْ يتجاوزَ السلبيات، وأنْ يتناساها.

عليه أنْ يُقنعَ نفْسَه أَنه سعيدٌ موفَّقٌ، ناجح محبوب، ذكي اجتماعي، وأنْ يتصَّرفَ على أَساسِ هذه القناعة.

قيل إِنه كان سجينان مَعاً في غرفةِ السجن، ووقفا معاً، ونظرا معاً من نافذةِ غرفةِ السجن، لكنَّ أَحدهما نظرَ إِلى القمر المضيء في الليل، ففرحَ واستبشر، وقال: يا الله ما أَجملَ القمر.

أما الآخرُ فقد نظرَ إِلى الأرض، فأزعجه الطينُ والقاذورات التي عليها، فانقبضَ وضجرَ وتشاءم، ولعنَ الأرضَ والأوساخَ التي عليها.

فالسعيدُ صاحبُ التفكيرِ الإيجابي لفتَ نظرَه جمالُ القمر، والمنقبضُ صاحبُ التفكير السلبي لفتَ نظرَه أوساخُ الأرض!!.

عوامل أساسية ومساعدة للتفكير الإيجابي

فيا صاحبَ العلم: استثمرِ الإيجابيات وتجاهَلِ السلبيات. وأُلخصُ لك هذه النصائحَ من الكتابِ المفيد «القلق، وكيف تتخلص منه» الذي طبعَتْه دارُ القلم بدمشق للدكتور زهير السباعي والدكتور شيخ إدريس عبد الرحيم.

حتى تكونَ صاحبَ تفكيرٍ إيجابي عليكَ أنْ تلتزمَ بعواملَ أساسية، وأُخرى مساعدة، كي تتخلصَ من القلق.

العواملُ الأساسيةُ للتفكيرِ الإيجابي والتخلصِ من القلق هي:

أ ـ عليكَ بحُسنِ إدراكِ المشكلة.

ب ـ ثم يجبُ أنْ تتوفَّرَ لديك الرغبةُ الأكيدةُ في حلِّها.

ج ـ ثم يجبُ أنْ تقتنعَ بإمكانيةِ حلِّ المشكلة.

د ـ أنْ تتوفَّرَ عندك الثقةُ العالية بنفسِك ومواهبك وقدراتِك.

هـ ـ أنْ تحدِّثَ نفسَك دائماً بالإيحاءِ الذاتي الإيجابي.

و ـ الاستمرارُ في توثيقِ وتعميقِ الصلة بالله وذكْرِه وعبادتِه.

والعواملُ المساعدةُ للتفكير الإيجابي والتخلصِ من القلق هي:

أ ـ تصالحْ مع نفسك، وصادِقْها، وتقبَّلْها كما هي، واستثمرْ مواهبها.

ب ـ وَثِّقْ علاقَتَك بالناس، وأَكثِرْ من الاهتمامِ بهم، وتقديمِ الخير لهم.

ح ـ نَظِّمْ حياتَك، وفْقَ خطةٍ مدروسة مبرمجة.

د ـ ضَعْ حدّاً للقلق، وأَبْعِدْه عن ذهنك، ولا تفكِّرْ فيه.

و ـ تعلَّمْ كيفَ تسترخي، ومارِسْ «فَنَّ الاسترخاء» النفسي والبدني، كلَّ يوم بضعَ دقائق، وليكُنْ هذا قبيلَ النوم.

مراجع للصحة النفسيـة

أَخي صاحبَ العلم: استفِدْ من هذه الأبياتِ التي قالها الشاعرُ «إِيلِيّا أَبو ماضي» في قصيدتِه «فلسفة الحياة»:

أَيُّهـذا الشّـاكي ومـا بِـكَ دَاءٌ   كيْفَ تَغْدو إِذا غَدَوْتَ عَليلا

إنَّ شَرَّ الجُناةِ في الأَرْضِ نَفْسٌ تَتَوَقّىٰ قَبْلَ الرَّحيلِ الرَّحيلا
وَتَرىٰ الشَّوْكَ في الورُودِ وتَعْمىٰ أَنْ تَرىٰ فَوْقَها النَّدىٰ إكْليلا
هُوَ عِبْءٌ عَلى الحَياةِ ثَقيلٌ مَنْ يَظُنُّ الحَياةَ عِبْئاً ثَقيلا
وَالـذي نَفْسُهُ بِغَيْرِ جَمالٍ لا يَرى في الوُجودِ شَيْئاً جَميلا
أَحْكَمُ النّاسِ في الحَياةِ أُناسٌ عَلَّلوها فَأَحْسَنوا التَّعْليلا
أَيُّهذا الشّاكي وَما بِكَ دَاءٌ كُنْ جَميلاً تَرَ الوُجودَ جَميلا

وأَنصحُ صاحبَ العلمِ أنْ يقرأَ الكتبَ التالية باستيعابٍ وعناية، ليحسنَ الاستفادةَ منها، ويتمتعَ بصحةٍ نفسيةٍ رائعة، ويتخلصَ من القلق:

١ ـ دَعِ القلقَ وابدأ الحياة. تأليف الأمريكي: ديل كارنيجي.
٢ ـ كيفَ تكسبُ الأصدقاء. تأليف كارنيجي.
٣ ـ كيف تؤثِّرُ في الناس. تأليف كارنيجي.
٤ ـ جدِّدْ حياتَك. تأليف محمد الغزالي.
٥ ـ الإيمانُ والحياة. تأليف الدكتور يوسف القرضاوي.
٦ ـ القلقُ وكيفَ تتخلصُ منه. تأليف الدكتور زهير السباعي والدكتور شيخ إدريس عبد الرحيم.

وعندما يُراعي صاحبُ العلم الوصايا والنصائحَ المذكورة، ويلتزمُ بالقواعد السابقة، فسوفَ يعيشُ حياتَه التي قدَّرها الله له، سعيداً راضياً مطمئناً، ويتمتعَ بصحةٍ بدنيةٍ ونفسية، وعندها سوفَ ينصرفُ إلى تحقيقِ الواجبات، وأداءِ الوظيفة، ويَرتقي بمستواه

العلمي والعبادي والدعوي، وينفذُ خطتَه العلميةَ البراقة، ويَبقى متدرجاً نحو العُلا، إلى أنْ يُغادرَ هذه الحياة الدنيا، راضياً مرضياً ليستريحَ ويُكْرَم عند اللهِ الكريمِ المنّان. . .

* * *

الخاتمـة

بهذا ينتهي ما قدَّرَ اللهُ لنا أنْ نسجِّلَه في هذه الرسالة، خدمةً لأصحابِ العلم، الحريصين على التحصيلِ العلمي، الراغبين في برمجةِ أَوقاتهم، والاستفادةِ من أَعمارهم، التواقين إلى ما هو أَفضلُ وأَسمى وأعلى، السائرين في طريقِ الفضائل والريادة.

وكلُّ ما نَرجوه أنْ يتقبلَ اللهُ منّا هذا العمل، وأنْ يجعلَه خالصاً لوجهه الكريم، وأنْ يُثيبنا عليه، وأنْ يُعين القراءَ الكرام على الالتزامِ بالخطةِ التواقة، في فقراتِها وبُنودها وبَرامجها وخطواتها وقواعدها.

وخيرُ ما نختمُ به هذه الرسالة «الوصايا العشر» التي أَلهمَ اللهُ الأستاذَ الإمامَ الشهيد حسن البنا رحمه الله، فصاغَها ودَعا إِخوانَه إِلى الالتزامِ بها، ونقدمُ هذه الوصايا العشرَ لأَصحابِ العلم، طالبين منهم مراعاتِها والالتزامِ بها، باعتبارها مكملةً لموضوعِ الرسالة.

١ ـ قُمْ إِلى الصلاة، متى سمعتَ النداء، مهما تكن الظروف.

٢ ـ أُتْلُ القرآن، أَو طالِعْ، أَو استَمِع، أو اذكُر الله، ولا تَصرفْ جزءاً من وقتك في غيرِ فائدة.

٣ ـ إجتهدْ أنْ تتكلمَ العربية الفصحى، فإن ذلكَ من شعائرِ الإسلام.

٤ ـ لا تُكثِرِ الجدلَ في أيِّ شأنٍ من الشؤون أيّاً كان، فإنَّ المراءَ لا يأتي بخير.

٥ ـ لا تُكثر الضحك، فإنَّ القلبَ الموصولَ بالله ساكنٌ وَقور.

٦ ـ لا تَمزح، فإنَّ الأمةَ المجاهدةَ لا تَعرفُ غيرَ الجدّ.

٧ ـ لا تَرفعْ صوتَك أكثرَ مما يحتاجُ إليه السامع، فإنه رُعونةٌ وإيذاء.

٨ ـ إجتنبْ غيبةَ الأشخاص وتَجريحَ الهيئات، ولا تتكلمْ إلاّ بخير.

٩ ـ تَعرَّفْ إلى مَنْ تلقاهُ من إخوانك، وإنْ لم يطلبْ إليك ذلك، فإنَّ أساسَ دعوتِنا الحبُّ والتعارف.

١٠ ـ الواجباتُ أكثرُ من الأوقات، فعاوِنْ غيرَك على الانتفاعِ بوقته، وإنْ كانَ لك مهمةٌ فأوجزْ في قضائها.

ولا يظنَّنَّ ظانٌّ أنَّ هذه الوصايا العشر التي صاغَها الإمامُ الشهيد حسن البنا رحمه الله، هي آراءٌ اجتهادية خاصة اجتهدها البنا، فما هي إلا وصايا إسلامية، لكلِّ وصية منها أُصولُها الشرعية الإسلامية، ولكل وصية نصوصٌ تدلُّ عليها، سواء كانت هذه النصوصُ آياتٍ قرآنية، .أو أحاديثَ نبويةً صحيحة عن رسول الله ﷺ.

ونَنصحُ صاحبَ العلم أنْ يطالعَ رسالةَ «شرح الوصايا العشر» للأستاذ الدكتور عبد العظيم المطعني، وقد صدرتْ هذه الرسالةُ عن دار الشروق بمصر، سنة ١٩٧٦م. وأَعادَ الدكتورُ المطعني كلَّ وصية إِلى أُصولها الشرعية، ونصوصِها من الآيات والأحاديث.

والحمدُ لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

كتب ننصح بقراءتها

ننصح أصحاب العلم ذوي النفوس التواقة، الراغبين في الاستفادة من هذه الخطة البراقة، أن يستكملوا موضوع هذه الرسالة، بقراءة هذه الكتب، التي تتوسع في بعض الجوانب التي أجملنا الكلام عنها في هذه الرسالة، ونعتبر هذه الكتب مكملة لما قلناه هنا.

١ ـ قيمة الزمن عند العلماء، للشيخ عبد الفتاح أبي غدة.

٢ ـ صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، للشيخ عبد الفتاح أبو غدة.

٣ ـ الوقت في حياة المسلم. للدكتور يوسف القرضاوي.

٤ ـ الإيمان والحياة. للدكتور يوسف القرضاوي.

٥ ـ جدد حياتك. للشيخ محمد الغزالي.

٦ ـ جند الله ثقافة وأخلاقاً للشيخ سعيد حوى.

٧ ـ دع القلق وابدأ الحياة، للأمريكي: ديل كارنيجي.

٨ ـ كيف تكسب الأصدقاء. لديل كارنيجي.

٩ ـ كيف تؤثر في الناس. لديل كارنيجي.

١٠ ـ القلق وكيف تتخلص منه. للدكتور زهير السباعي وشريكه.

١١ ـ شرح الوصايا العشر. للدكتور عبد العظيم المطعني.
١٢ ـ رحلة الإيمان في جسم الإنسان. للدكتور حامد أحمد حامد.
١٣ ـ الوقاية خير من العلاج. للدكتور عبد الرزاق الكيلاني.
١٤ ـ وصايا طبيب. للدكتور حسان شمسي باشا.
١٥ ـ ثوابت للمسلم المعاصر. للدكتور صلاح الخالدي.

* * *

المحتوى



كتب صدرت للمؤلف
مرتبة حسب صدور طبعاتها الأولى

١ ـ سيد قطب الشهيد الحي. نفد

٢ ـ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب. نفد

٣ ـ أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب. الطبعة السابعة

٤ ـ مدخل إلى «في ظلال القرآن». نفد

٥ ـ المنهج الحركي «في ظلال القرآن». نفد

٦ ـ في ظلال القرآن في الميزان. نفد

٧ ـ مفاتيح للتعامل مع القرآن. الطبعة الثانية

٨ ـ في ظلال الإيمان. الطبعة الثانية

٩ ـ الشخصية اليهودية من خلال القرآن الطبعة الثانية.

١٠ ـ تصويبات في فهم بعض الآيات. الطبعة الثانية

١١ ـ مع قصص السابقين في القرآن: ١ ـ ٣. الطبعة الثانية

١٢ ـ البيان في إعجاز القرآن. الطبعة الرابعة

١٣ ـ ثوابت للمسلم المعاصر الطبعة الثانية.

١٤ ـ إسرائيليات معاصرة الطبعة الثانية.

١٥ ـ سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد الطبعة الثانية.

١٦ ـ لطائف قرآنية.

١٧ ـ هذا القرآن.

١٨ ـ حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية الطبعة الثانية.

١٩ ـ الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد.

٢٠ ـ التفسير والتأويل في القرآن.

٢١ ـ تفسير الطبري: تقريب وتهذيب: ١ ـ ٧.

٢٢ ـ القصص القرآني: وقائع وأحداث.

٢٣ ـ الخطة البراقة لذي النفس التواقة.

٢٤ ـ الأتباع والمتبوعون في القرآن.

٢٥ ـ التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق.

* * *